

جامعة الأزهر

كلية اللغة العربية بأسسيوط

المجلة العلمية

”الضيافة في القرآن الكريم والسنة النبوية

دراسة بلاغية”

*Hospitality In The Holy Quran And The
"Sunnah Of The Prophet A Rhetorical Study*

إعداد

د/ عبد الرحيم إبراهيم عبدالرحيم محمد الخطيب

مدرس البلاغة والنقد في كلية الدراسات

الإسلامية والعربية للبنين بقنا جامعة الأزهر

(العدد الثالث والأربعون)

(الإصدار الرابع - نوفمبر)

(الجزء الخامس ١٤٤٦هـ / ٢٠٢٤م)

التريقيم الدولي للمجلة (ISSN) 2536- 9083
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٢٤/٦٢٧١م

” الضيافة في القرآن الكريم والسنة النبوية

دراسة بلاغية ”

عبد الرحيم إبراهيم عبد الرحيم محمد الخطيب

قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين، جامعة الأزهر، بقنا، مصر.

البريد الإلكتروني: AbdelRahimMohamed.4119@azhar.edu.eg

ملخص البحث

أظهر البحث أن القرآن الكريم، والبيان النبوي الشريف يؤكدان ما كان عليه العرب قبل الإسلام من إكرام الضيف، والاحتفاء به، بل ويجعلون هذا من مفاخرهم وعاداتهم، وكذلك الرسائل السابقة وفي مقدمتها شريعة إبراهيم - عليه السلام - اهتمت بالضيف، وحثت على الإحسان إليه، وامتدحت من يكرمه. وقد كان المنهج الوصفي التحليلي هو الأنسب لهذه الدراسة، وفق إجراءات أهمها: حصر آيات الضيافة في القرآن الكريم، وتحليلها تحليلًا بلاغيًا يسهم في كشف المراد من كلامه تعالى، ومدى موافقته لمقتضى الحال، ووفائه بغرضه، وإظهار أثر ذلك على المخاطب والسامع، وكذلك البيان النبوي الشريف - ولكن - باختيار أحاديث من كلام الرسول - صلى الله عليه وسلم - تظهر مكانة الضيافة وأنها من مكارم الأخلاق، ودواعي الإيمان بالله واليوم الآخر.

وقد تم بناء البحث في مقدمة، وتمهيد، وفصلين، وخاتمة، ففي المقدمة، جاء البحث مشتملاً على أهم أسباب اختيار الموضوع وأهميته، وأهم أهدافه، والدراسات السابقة فيه، ومنهج البحث، وخطته، وفي التمهيد وقف البحث على تعريف الضيافة لغة واصطلاحًا. وقد جاء الفصل الأول بعنوان: الضيافة في القرآن الكريم، واشتمل على ثلاثة مباحث، المبحث الأول: الضيافة في مقام قصة إبراهيم عليه السلام، والمبحث الثاني: الضيافة في مقام لوط عليه السلام، والمبحث الثالث: الضيافة في مقام قصة موسى والخضر عليهما السلام، والفصل الثاني جاء بعنوان: الضيافة في السنة

النبوية، واشتمل على ثلاثة مباحث، المبحث الأول: الضيافة في مقام الحث على إكرام الضيف، والمبحث الثاني: الضيافة في مقام أدب الضيف والمضيف، والمبحث الثالث: الضيافة في مقام إكرام الضيف وفضل إثارة، ثم الخاتمة، كشفت عن أهم نتائج البحث، ومن أهمها: أن القرآن الكريم، والبيان النبوي الشريف أكدا ما كان عليه العرب قبل الإسلام، من إكرام الضيف، وحسن استقبله، وأن هذا من عاداتهم ومفاخرهم.

الكلمات المفتاحية: الضيافة، القرآن الكريم، السنة النبوية.

Hospitality In The Holy Quran And The Sunnah Of The Prophet A Rhetorical Study”

Abdel Rahim Ibrahim Abdel Rahim Mohamed El Khatib

*Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Islamic and Arabic Studies for
Boys in Qena, Al-Azhar University*

Email: *AbdelRahimMohamed.4119@azhar.edu.eg*

summary

“Hospitality in the Holy Qur’an and the Prophet’s Sunnah: A Rhetorical Study”

The research showed that the Holy Qur’an and the noble Prophet’s statement confirm what the Arabs did before Islam of honoring the guest and celebrating him, and even made this one of their prides and customs. Likewise, the previous messages, most notably the law of Abraham - peace be upon him - paid attention to the guest, encouraged kindness to him, and praised him. Who honors him? The descriptive analytical approach was the most appropriate for this study, according to procedures, the most important of which are: inventorying the verses of hospitality in the Holy Qur’an, and analyzing them rhetorically that contributes to revealing the meaning of the Almighty’s words, the extent to which they agree with the requirements of the situation, and fulfill their purpose, and showing the impact of that on the addressee and the listener, as well as the prophetic statement. Al-Sharif - however - by choosing hadiths from the words of the Messenger - may God bless him and grant him peace - shows the status of hospitality and that it is one of the noble morals and the reasons for belief in God and the Last Day. The research was structured in an introduction, a preface, two chapters, and a conclusion. In the introduction, the research included the most important reasons for choosing the topic and its importance, its most important objectives, previous studies in it, the research methodology, and its plan. In the introduction, the research focused on the definition of hospitality linguistically and terminologically. The first chapter was entitled: Hospitality in the Holy Qur’an, and included three topics. The first topic: Hospitality in the place of the story of Abraham, peace be upon him. The second topic: Hospitality in the place of Lot, peace be upon them. The third topic: Hospitality in the place of the story of Moses and Al-Khidr, peace be upon them. The second chapter was entitled: Hospitality in the Sunnah of the Prophet, and included three topics. The first topic: Hospitality in the position of urging honoring the guest, the second topic: Hospitality in the position of etiquette of the guest and the host, and the third topic: Hospitality in the position of honoring the guest and the virtue of his

selflessness, then the conclusion, It revealed the most important results of the research, the most important of which are: that the Holy Qur'an and the noble Prophet's statement confirmed what the Arabs were like before Islam, of honoring the guest and receiving him well, and that this was one of their customs and pride.

Keywords: *Hospitality, The Holy Qur'an, The Sunnah Of The Prophet.*

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن الضيافة في القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة تأكيد لما كان عليه العرب قبل الإسلام من إكرام الضيف، والحفاوة به، وعد ذلك من مفاخرهم وعاداتهم، وكذلك الرسائل السابقة وفي مقدمتها شريعة إبراهيم - عليه السلام - اهتمت بالضيف، وحثت على الإحسان إليه، وامتدحت من يكرمه.

فالقرآن الكريم والسنة النبوية يوضحان أهمية الضيافة ومكانتها في الإسلام؛ وذلك من خلال الأساليب والمعاني البلاغية التي توظف وتنبه السامع إلى ما ينبغي من أخلاق الضيافة وآدابها، فالأساليب البلاغية لها القدرة على جذب المخاطب، وإيقاظ فكره نحو المطلوب بصورة سريعة؛ فهذه الأسباب وغيرها، تشوقت إلى دراسة توضح أهمية الضيافة، وتذكير الناس بفضلها ومكانتها، فمنَّ الله تعالى عليَّ باختيار: "الضيافة في القرآن الكريم والسنة النبوية دراسة بلاغية"؛ حتى يتقظ المتلقي إلى مراد المتكلم، ويستقر في ذهنه أن الضيافة من سنن الأنبياء والمرسلين، فيعم الخير، ونشر الفضيلة، والمروءة بين أبناء الفصيل الواحد، ومن هنا ظهرت أهمية الموضوع.

ومن أهم أهداف هذه الدراسة:

- إيقاظ السامع وتحريك مشاعره نحو الضيافة، ومكارم الأخلاق.
- تنبيه المخاطب إلى تواضع الرسول - صلى الله عليه وسلم - في قبول دعوة صاحب الطعام، وبيان ما كان عليه - صلى الله عليه وسلم - من ضيق العيش وقلة الزاد.
- التأكيد على أن الضيافة من مكارم الأخلاق، وسنن المرسلين، وأن أول من سن القرى هو إبراهيم عليه السلام.

الدراسات السابقة:

قد سبقت هذه الدراسة بدراسات كثيرة توضح الضيافة وأهميتها في الشعر العربي منها:

- (الصورة البيانية للضيافة في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي دراسة بلاغية تحليلية)، رسالة (ماجستير)، إعداد/ محمد نافع بن شاهر المطرفي، إشراف/الأستاذ الدكتور/ عامر بن عبدالله الثبيتي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، كلية اللغة العربية، قسم الأدب والبلاغة، سنة (١٤٣٤هـ/١٤٣٥هـ).
 - (كرم الضيافة في الصحراء) لشلحود جوزيف، مجلة رسالة اليونسكو، العدد (٤٣)، الصفحات (٧-١١)، رقم (706589) فبراير، ١٩٩٠م.
 - الكرم المستحيل: قراءة جديدة في قصيدة الحطيئة (وطاو ثلاث) لصالح معيض الزهراني، جامعة الملك سعود، الدارة، السنة العشرون، عام (١٩٩٥م).
- وقد اتضح الفرق بين الدراسات السابقة، وموضوع البحث، فلم يدرس أحد منها الضيافة في القرآن الكريم، والسنة النبوية، ومدى تأثير ذلك على المخاطب والسامع دراسة منفردة.

منهج البحث:

- ناسبت الدراسة، المنهج الوصفي التحليلي الذي يقوم وفق إجراءات من أهمها:
- حصر آيات القرآن الكريم التي تشتمل على مادة (ض ي ف) وتحليلها تحليلًا بلاغيًا يسهم ويبرز مراده تعالى.
 - تحليل كل آية من آيات الضيافة على حدة، مع ذكر المعنى العام، وسبب النزول إن وجد، وربط ذلك بالمقام، ومدى استدعاء مقتضى الحال له، ومدى وفائه بغرض الكلام، وأثر ذلك على المخاطب والسامع.
 - انتقاء أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - التي تناولت الضيافة، وتحليلها تحليلًا بلاغيًا على وجه يظهر بلاغته - صلى الله عليه وسلم - ومدى تأثير ذلك

على المخاطب والسامع.

- الاعتماد على كلام الرسول - صلى الله عليه وسلم - في الأحاديث التي اشتملت على الضيافة.
- تحليل كل حديث على حدة مع ذكر معناه العام، وسبب وروده إن وجد، وإبراز أثر السياق في اصطفاؤه دون غيره.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث أن يأتي في مقدمة، وتمهيد، وفصلين، وخاتمة، أما المقدمة، فقد تناولت فيها أهم أسباب اختيار الموضوع وأهميته، وأهم أهداف ودوافع ذلك البحث، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، وخطته.

ثم **التمهيد**، وقد اشتمل على تعريف الضيافة لغة واصطلاحًا. وقد اقتضت الدراسة أن يأتي البحث على فصلين:

الفصل الأول: الضيافة في القرآن الكريم، ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الضيافة في مقام قصة إبراهيم عليه السلام.

المبحث الثاني: الضيافة في مقام قصة لوط عليه السلام.

المبحث الثالث: الضيافة في مقام قصة موسى والخضر عليهما السلام.

الفصل الثاني: الضيافة في السنة النبوية، ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الضيافة في مقام الحث على إكرام الضيف.

المبحث الثاني: الضيافة في مقام أدب الضيف والمضيف.

المبحث الثالث: الضيافة في مقام إكرام الضيف وفضل إيثاره.

ثم **الخاتمة** بها أهم النتائج، والتوصيات التي توصل إليها البحث، ثم أهم المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

والله أسأل أن يعلمنا ما ينفعنا، وينفعنا بما علمنا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد

أولاً: تعريف الضيف لغة واصطلاحاً:

الضيف لغة:

"وَاحِدٌ وَجَمْعٌ وَقَدْ يُجْمَعُ عَلَى (الْأَضْيَافِ) وَ(الضُّيُوفِ) وَ(الضَّيْفَانِ) وَالْمَرَّةُ (ضَيْفٌ) وَ(ضَيْفَةٌ)، وَ(أَصَافَ) الرَّجُلَ وَ(ضَيَّفَهُ تَضْيِيفًا) أَنْزَلَهُ بِهِ (ضَيْفًا) وَ(ضَافَهُ) (ضِيَافَةً) إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ ضَيْفًا وَكَذَا (تَضَيَّفَهُ)"^(١).

واصطلاحاً: هو النازل في منزل أحد نزولاً غير دائم، لأجل مرور في سفر أو إجابة دعوة، والنزل: رزق النزول، وهو الضيف^(٢)، فالمعنى اللغوي والاصطلاحى يشتركان في معنى الضيف وهو النزول على الغير.

ثانياً: الضيافة في القرآن الكريم:

وردت مادة (ض ي ف) في القرآن الكريم ست مرات، حيث وردت كلمة (ضيف) مضافة إلى اسم ظاهر مرتين:

- ١- قوله تعالى: (وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ)^(٣).
- ٢- قوله تعالى: (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ)^(٤).

(١)- مختار الصحاح لزين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الرازي (ت: ٦٦٦هـ)، تح/يوسف الشيخ محمد، مادة (ض ي ف)، (١/١٨٦)، ط٥، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، (١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م).

(٢)- ينظر: كتاب التعريفات لعلي بن محمد الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، تح/جماعة من العلماء بإشراف الناشر (ص: ٢٤٠)، ط١، دار الكتب العلمية بيروت، (١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م)، والتحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» لمحمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ)، (١٢/١٢٨)، ط، الدار التونسية للنشر، تونس (١٩٨٤هـ)

(٣)- سورة الحجر، الآية (٥١).

(٤)- سورة الذاريات، الآية (٢٤).

ومضافة إلى ضمير ثلاث مرات:

١- قوله تعالى: (وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ)^(١).

٢- قوله تعالى على لسان لوط عليه السلام: (قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ)^(٢).

٣- قوله تعالى: (وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ)^(٣).

وفعلًا مضارعًا مرة واحدة:

قال تعالى: (فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَفْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا)^(٤).

ثالثًا: الضيافة في السنة النبوية:

وردت أحاديث كثيرة تحت على الضيافة في البيان النبوي الشريف، منها ما رواه الإمام البخاري بإسناده:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ فَلَا يُوذُّ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»^(٥).

(١)- سورة هود، الآية (٧٨).

(٢)- سورة الحجر، الآية (٦٨).

(٣)- سورة القمر، الآية (٣٧).

(٤)- سورة الكهف، الآية (٧٧).

(٥)- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسننه وأيامه

(صحيح البخاري) لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري (ت: ٢٥٦هـ)، تح/محمد زهير بن

ناصر الناصر، كتاب الأداب، باب: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (١١/٨) رقم

(٦٠١٨)، ط١، دار طوق النجاة (١٤٢٢هـ).

وما رواه الإمام مسلم بإسناده: عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، أَنَّهُ قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ تَبْعْتُنَا فَنَنْزِلُ بِقَوْمٍ فَلَا يَفْرَوْنَنَا، فَمَا تَرَى؟ فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنْ نَزَلْتُمْ بِقَوْمٍ فَأَمَرُوا لَكُمْ بِمَا يَنْبَغِي لِلضَّيْفِ، فَأَقْبَلُوا، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا، فَخُذُوا مِنْهُمْ حَقَّ الضَّيْفِ الَّذِي يَنْبَغِي لَهُمْ"^(١).

وما رواه الإمام الطبراني بإسناده: عَنْ مُجَمِّعِ بْنِ يَحْيَى بْنِ حَارِثَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ عَمِّي خَالِدَ بْنَ زَيْدِ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " بَرِيءٌ مِنَ الشُّحِّ: مَنْ أَدَّى الرِّكَامَةَ، وَقَرَى الضَّيْفَ، وَأَعْطَى فِي النَّائِبَةِ "^(٢).

وما رواه الإمام البيهقي بإسناده: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " كَانَ أَوَّلَ مَنْ ضَيَّفَ الضَّيْفَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ "^(٣)، فالبيان النبوي الشريف يتآزر مع القرآن الكريم في التأكيد على الضيافة وأنها من سنن الأنبياء ومكارم الأخلاق.

(١) - المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (صحيح مسلم) لمسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)، تح/محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب اللقطة، باب الضيافة ونحوها (٣/ ١٣٥٣) رقم (١٧٢٧)، ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢) - المعجم الكبير لسليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير الطبراني (ت: ٣٦٠هـ)، تح/حمدي بن عبد المجيد السلفي، باب الخاء، خالد بن زيد الأنصاري (٤/ ١٨٨) رقم (٤٠٩٦)، ط، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

(٣) - شعب الإيمان لأحمد بن الحسين البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)، تح/د. عبد العلي عبد الحميد حامد وآخرون، إكرام الضيف (١٢/ ١٣٦) رقم (٩١٧٠)، ط، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض (١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م).

المبحث الأول

الضيافة في مقام قصة إبراهيم عليه السلام

جاءت الأساليب والمعاني البلاغية، موقظة للمتلقي كرم الضيف؛ كي يتحلى ويسير على خطى الأنبياء والمرسلين في مقابلة الضيف واحترامه، وتقديم أوجه المساعدة له، كما أوضحت الأساليب البلاغية، وما تكاتف معها من معان بلاغية، مدى ارتباط الأمة الإسلامية بسابقتها، وكيف كان شأن الأمم السابقة في التحلي بكمارم الأخلاق، وإكرام الضيف، وقد جاء ذكر الضيف - من خلال هذه القصة - في موضعين:

الموضع الأول:

قال تعالى: (نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠) وَنَبَّيْنَاهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بِشَرِّنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ) (١).

لما ذكر الله تعالى حديث المتقين وما لهم من علو المنزلة انكسرت قلوب العاصين، فتدارك الله قلوبهم، وقال لنبيه - صلى الله عليه وسلم - أخبر عبادي العاصين أني غفور رحيم، وأني إن كنت الشكور الكريم بالمطيعين فأنا الغفور الرحيم بالعاصين، وأن عذابي هو العذاب الأليم، وهذا إجمال لما سبق من الوعد والوعيد وتأكيده (٢).

(١) - سورة الحجر، الآيات (٤٩ - ٥٦).

(٢) - ينظر: لطائف الإشارات (تفسير القشيري) لعبد الكريم بن هوازن القشيري (ت: ٤٦٥هـ)، تح/إبراهيم البسيوني (٢/٢٧٤)، ط٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، وروح المعاني في

ثم جاء ذكر الضيافة في قوله تعالى: (وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ) مظهرة معنى الكرم، فالله تعالى يخبر رسوله - صلى الله عليه وسلم - بأن يعرف الأمة كيف كانت فتوة الخليل في الضيافة، وقيامه بحق الضيوف، وخدمتهم^(١).

هذا، والبلاغة القرآنية تفيض بما يسهم في إكرام الضيف من خلال التراكم والألفاظ، فالتعبير بالإنباء في قوله تعالى: (وَنَبِّئْهُمْ) يفضي إلى الاهتمام والتشويق بالأمر المراد، فالله تعالى من خلال هذه القصة يبرز مدى رحمته بعباده الصالحين وعذابه للعاصين، فـ " العطف مع اتحاد الفعل المعطوف بالفعل المعطوف عليه في الصيغة، دليل على أن المقصود، الإنباء بكلا الأمرين، لمناسبة ذكر القصة، أنها من مظاهر رحمته تعالى وعذابه"^(٢)، وأن التنبيه على الضيف وإكرامه من مكارم الأخلاق، وسنن المرسلين، فسيدنا إبراهيم - عليه السلام - أول من سن الضيافة.

وتأمل البلاغة القرآنية في كرم الضيف في قوله تعالى: (إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ)، فجملة (قال إنا منكم وجلون) جاءت مفصولة بدون عطف؛ لأنها جواب عن جملة (فقالوا سلاما)، وجملة (إنا منكم وجلون) دلت دلالة ظاهرة على تقديم الطعام للملائكة قبل أن يعرفهم الخليل، وهناك جمل مطوية ذكرت في سورة في سورة (هود) في قوله تعالى: (وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ . فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ)^(٣)، ويبدو أن المقام مقام تنبيه

→→→

تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين محمود الألوسي (ت: ١٢٧٠هـ)، تح/علي عبد الباري عطية (٣٠٣/٧)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤١٥هـ).

(١) - ينظر: لطائف الإشارات (٢/٢٧٥).

(٢) - التحرير والتنوير (١٤/٥٧).

(٣) - سورة هود، الآيات (٦٩، ٧٠).

وإرشاد على كرم الله تعالى وغفرانه، وما كان عليه السابقين من الأنبياء والمرسلين في كرم الضيف، فكان الإيجاز أنسب للمقام وكل بليغ في مقامه وسياقه.

وعند التأمل في السياق نلاحظ أن الضيوف قد طرقت بيت الخليل - عليه السلام - في غير وقت طروق الضيف، فظنهم يريدون به شرًا، فلما سلموا عليه، فاتحهم بطلب الأمن، فقال: (إنا منكم وجلون)، أي خائفون^(١)، فالتعبير بالصفة المشبهة (وجلون) جعل هذا الخوف ظاهرًا على سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وهو ما جعل الملائكة يطمئنوه ويبشروه بالسلام.

وتأمل البلاغة العالية في قوله تعالى على لسان الملائكة: (قَالُوا لَا تَوْجَلْ)؛ إشارة إلى أن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - قدم لهم الطعام، فلما سلموا من جانبهم، وردّ عليهم وانفضوا عن تناول طعامه، خاف سيدنا إبراهيم - عليه السلام - لذلك قال: (إنا منكم وجلون)، فإن الإمساك عن تناول طعام الكرام موضع للريبة، ولما علم أنهم ملائكة خاف أن يكونوا نزلوا لتعذيب قومه إذ كانوا مجرمين، فبشروه بالسلام^(٢).

وعلى وجه الجملة، نرى أن السياق كشف عن تقديم الطعام للضيف، والنظر إلى ما يحتاجه من طعام وشراب، وكيف جلس الخليل مع ضيوفه لتناول الطعام، وكيف كان الضيف مؤدبًا في أسلوبه وتعامله مع الخليل؛ إذ طمأنه حتى يستمر في طعامه وشرابه ولا يجزع إذا كان الضيف لا يأكل حتى يشرح له غايته وهدفه من عدم الطعام.

(١) - ينظر: التحرير والتنوير (٥٨/١٤).

(٢) - ينظر: لطائف الإشارات (٢٧٥/٢).

الموضع الثاني:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ)^(١).

" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - يخبره أنه مُحَلٌّ بمن تهادى في غيبه، وأصر على كفره، فلم يتب منه من كفار قومه، ما أحل بمن قبلهم من الأمم الخالية، ومذكرا قومه من قريش بإخباره إياهم أخبارهم وقصصهم، وما فعل بهم، هل أتاك يا محمد حديث ضيف إبراهيم خليل الرحمن المكرمين " ^(٢).

وجاء ذكر الضيف في قوله تعالى: (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ)؛ إظهاراً لكرم الضيف، والاهتمام به، وتقديم ما يحتاج إليه من واجب الضيافة، وحسن الاستقبال، وهذا يدل على عراقة الأصل وكرم الطبع.

وعند التأمل في السياق، نلاحظ أن هذه القصة مسوقة لتسليّة قلب الرسول - صلى الله عليه وسلم - على ما لقيه من تكذيب قومه، ويتبع ذلك تعريض بالسامعين حين يقرأ عليهم القرآن أو يبلغهم بأنهم صائرون إلى مثل ذلك العذاب لاتحاد الأسباب وتشابهها^(٣).

(١) - سورة الذاريات، الآيات (٢٤ - ٢٨).

(٢) - جامع البيان في تأويل القرآن لمحمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ)، تح/أحمد محمد شاكر (٢٢ / ٤٢٤)، ط١، مؤسسة الرسالة (١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠م).

(٣) - ينظر: التحرير والتنوير (٢٦ / ٣٥٧).

والبلاغة القرآنية افتتحت القصة بـ (هل) التي تجذب انتباه السامع وأحاسيسه فهي تكون في الأمور الفخمة، وقد ورد ذلك ما أشبه هذه القصة في قوله تعالى: (وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ)^(١).

والمراد بالضيوف في قوله تعالى: (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ) الملائكة الذي أظهرهم الله لإبراهيم - عليه السلام - فأخبروه بأنهم مرسلون من الله؛ لتنفيذ العذاب لقوم لوط، وسماهم الله ضيفاً، نظراً لصورة مجيئهم في هيئة الضيف، وهم ثلاثة: (جبريل، وميكائيل، وإسرافيل)، وهذا من قبيل الاستعارة الصورية، ولعل سبب إرسال ثلاثة؛ ليقع تشكلهم في شكل الرجال، لما تعارفه الناس في أسفارهم أن لا يقل ركب المسافرين عن ثلاثة رفاق^(٢).

وتأمل البلاغة القرآنية في وصف الضيوف بـ (المكرمين)؛ إشارة إلى إكرام الخليل لهم فهو الذي سن القرى، أو أن الله تعالى أكرمهم برفع الدرجة؛ لأن الملائكة مقربون عند الله تعالى، أو أن الله تعالى سماهم مكرمين؛ لأن أضياف الكرام مكرمون، وكان إبراهيم - عليه السلام - أكرم الخليقة وأطهرهم فتوة^(٣).

وتأمل البلاغة العالية في كرم الضيف واحترامه؛ إذ قام الحديث بين الضيف والمضيف في إلقاء السلام، وهو ما دل عليه قوله تعالى: (إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا قَوْمًا مُنْكَرُونَ)، وأنكر الخليل أمرهم؛ لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان، وقيل: أنكر سلامهم في ذلك الزمان وفي تلك الأرض^(٤).

(١) - سورة ص، الآية (٢١).

(٢) - ينظر: التحرير والتنوير (٣٥٧/٢٦).

(٣) - ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن لأحمد بن محمد الثعلبي (ت: ٤٢٧ هـ)، تح/ الإمام أبي محمد بن عاشور (١١٧/٩)، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت (١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م).

(٤) - ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن (١١٧/٩).

وعند التأمل في دلالات التراكييب، نلاحظ أن تحية الضيف كانت بالنصب (سلامًا)، وتحية الخليل كانت بالرفع (سلامًا)، فالضيوف حيّوه بالجملة الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد، أي: (نُسَلِّمُ سلامًا)، والخليل قد حياهم بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت، والتعبير بالاسم أقوى من الفعل في دلالاته على الثبوت والدوام، وهذا يعد من تمام الكرم وأصالة المروءة.

ومن البلاغة القرآنية، التعبير بالاستئناف البياني أو شبه كمال الاتصال في قوله تعالى: (قَالَ سَلَامًا)، ولعلك تلاحظ أن جملة (قال سلامًا) لم تعطف على ما قبلها؛ لأنها وقعت جوابًا لسؤال انبثق من الكلام السابق، وكأن سائلًا سأل بعد سماعه جملة (فَقَالُوا سَلَامًا)، فما قال إبراهيم - عليه السلام - بعد تحية الضيف؟، فكان الجواب: (قَالَ سَلَامًا) فتركت الواو بينهما كما تترك بين السؤال والجواب، وهذا الضرب من ترك الواو يسمى عند البلاغيين بـ (الاستئناف البياني، أو شبه كمال الاتصال)، وهذا المعنى يشير إلى حسن استقبال الخليل للضيف، وسرعة رد التحية عليه، وهو من تمام الكرم^(١).

ومما تجدر الإشارة إليه أن جملة (قال، قالوا) من الجمل التي يكثر وقوعها جوابًا عن سؤال اقتضته الجملة الأولى، وذلك إذا وقعت في وسط الكلام بدون حرف عطف، قال الإمام عبد القاهر: "واعلم أن الذي تراه في التنزيل من لفظ (قال) مفصولا غير معطوف، هذا هو التقدير فيه، والله أعلم، أعني مثل قوله تعالى: {هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون، فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين، فقربه إليهم قال ألا تأكلون، فأوجس منهم خيفة قالوا لا

(١) - ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة لمحمد بن عبد الرحمن المعروف بخطيب دمشق (ت: ٧٣٩هـ)، ت/محمد عبد المنعم خفاجي (٣/١٢٢)، ط٢، دار الجيل، بيروت، والطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى بن حمزة العلوي (ت: ٧٤٥هـ)، (٣/١٦٩)، ط١، المكتبة العصرية، بيروت (١٤٢٣هـ).

تخف} ^(١)...، جاء على ما يقع في أنفس المخلوقين من السؤال، فلما كان في العرف والعادة فيما بين المخلوقين إذا قيل لهم: (دخل قوم على فلان فقالوا كذا)، أخرج الكلام ذلك المخرج؛ لأن الناس خوطبوا بما يتعارفونه، وسلك باللفظ معهم المسلك الذي يسلكونه.

ومذك ذلك قوله: {قال ألا تأكلون}، وذلك أن قوله: (فجاء بعجل سمين، فقربه إليهم)، يقتضي أن يتبع هذا الفعل بقول: فكأنه قيل والله أعلم: (فما قال حين وضع الطعام بين أيديهم؟)، فأتى قوله: {قال ألا تأكلون} جواباً عن ذلك.

وكذا: {قالوا لا تخف}؛ لأن قوله: {فأوجس منهم خيفة}، يقتضي أن يكون من الملائكة كلام في تأنيسه وتسكينه مما خامره، فكأنه قيل: (فما قالوا حين رأوه وقد تغير ودخلته الخيفة؟) فقيل: {قالوا لا تخف}... وهكذا التقدير والتفسير أبداً في كل ما جاء فيه لفظ (قال) هذا المجيء ^(٢).

ومن بلاغة القرآن الكريم في إكرام الضيف، أن إبراهيم - عليه السلام - حاد وأسرع عن المكان الذي نزل فيه الضيوف إلى أهل بيته؛ كي يصنع لهم الطعام، قال تعالى: {فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ}، يقال: "رَجُلٌ فَرَاغَ: سَرِيْعُ الْمَشْيِ وَاسِعُ الْخِطَاءِ" ^(٣)، وتظهر البلاغة القرآنية - في هذا المقام - في أن إخفاء إبراهيم - عليه السلام - وميله إلى أهله من حسن الضيافة، كيلا يوهم الضيف أنه يريد أن يحضر لهم شيئاً، فمن أدب المضيف أن يخفي أمره، وأن يبادر بالقرى من غير أن يشعر به الضيف؛ حذراً من أن

(١) - سورة الذاريات، الآيات (٢٤ - ٢٨).

(٢) - دلائل الإعجاز في علم المعاني لأبي بكر عبد القاهر الجرجاني الدار (ت: ٤٧١هـ)، تح/محمود

محمد شاكر أبو فهر (ص: ٢٤١)، ط٣، مطبعة المدني بالقاهرة (١٤١٣هـ / ١٩٩٢م)

(٣) - لسان العرب، مادة (ف ر غ)، (٤٤٦/٨).

يكفه ويعذره، وهذا يدل على سعة الكرم والمروعة^(١).

ومما يدل على سعة إكرام الضيف - في هذا المقام - السرعة في نحر العجل وتقديمه للضيوف، كما أن الوصف بـ(السمين) بمعنى الضخم، في قوله تعالى: (فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ)، يدل على كثرة اللحم في العجل، وهذا يدل على كثرة الكرم، كما أن تقريب اللحم للضيف - في مكانه - في قوله تعالى على لسان الخليل: (فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ)، يدل على تمام الإكرام للضيف، فتقريب الطعام قريباً من الضيف، وعدم نقله من مجلسه إلى موضع آخر بل جعل الطعام بين يديه، دل على تقدير الضيف واحترامه.

وهنا لمحة لطيفة دل عليها المقام في تقديم الطعام للضيف في موضعه؛ حيث إن هذه الصورة من أفخم وأحرى معنى الكرم والمروعة، وهذا يوضح الفرق بين طعام السائل، وطعام الضيف، فالسائل يدعى إلى الطعام، والضيف يؤتى إليه الطعام في موضعه.

وتأمل البلاغة العالية في التعبير بـ (الفاء) العاطفة في قوله: (فقربه)، التي دلت على السرعة، والسرعة في إعداد الطعام وتجهيزه للضيف من تمام الكرم والمروعة.

ومن تمام إكرام الضيف - في هذا المقام - التعبير بجملة العرض في قوله تعالى على لسان إبراهيم: (أَلَا تَأْكُلُونَ) فالعرض على الضيف عقب وضع الطعام بين يديه، زيادة في الإكرام؛ لأن في ذلك إظهار بالحرص على ما ينفع الضيف، وإن كان وضع الطعام بين يديه كافياً في تمكينه منه^(٢).

(١)- ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل لأبي القاسم محمود الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)،

(٤/٤٠١)، ط٣، دار الكتاب العربي، بيروت (١٤٠٧هـ)

(٢)- ينظر: التحرير والتنوير (٢٦/٣٦٠).

وانظر إلى البلاغة القرآنية في التعبير بـ (الفاء) التي ربطت المعنى وأظهرته في قوله: (فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً) أي: لم يأكلوا فأوجس منهم خيفة، وقد ظهر ذلك في سورة هود في قوله تعالى (فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ)^(١)، فلما رأى الخليل أيدي الملائكة لا تصل إلى العجل أوجس، ” والوجس: الصوت الخفي، والتوجس: التسمع، والإيجاس: وجود ذلك في النفس ”^(٢) ولم يظهر، وهذا من الكرم أيضاً؛ لأن المضيف إذا أخفى الخوف حتى من الضيف كان هذا من تمام المروعة وحسن الكرم، فلما ظهر على ملامحه من الخوف، قالوا له لا تخف، وأبلغوه بما أرسلوا إليه؛ لإهلاك قوم لوط، وبشروه بغلامه.

وقد ظهر من خلال الضيافة في قصة إبراهيم - عليه السلام - في سورتي الحجر والذاريات نتائج أهمها^(٣):

١- جاء في سورة الذاريات، أن إبراهيم - عليه السلام - ردَّ التحية عليهم حين حيَّوه فقال: (فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ) ، ولم يذكر ذلك في سورة الحجر، وإنما ذكر أنهم حيوه ولم يذكر أنه رد التحية عليهم، ولا شك أن ردَّ التحية هو الذي يقتضيه الإكرام، فلما وصفهم بأنهم مكرمون ناسب ذلك ذكر رد التحية، فإنه من إكرامهم.

(١) - سورة هود، الآية (٧٠).

(٢) - المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين المعروف بالراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ)، ت/صفوان عدنان الداودي، مادة (و ج س)، (ص: ٨٥٥)، ط١، دار القلم، الدار الشامية، بيروت (١٤١٢هـ).

(٣) - ينظر: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل لفاضل بن صالح السامرائي (ص: ٨٣ - ٨٨)، ط٢، دار عمار للنشر والتوزيع، الأردن (١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م).

٢- نلمح في سورة الذاريات أن الخليل - عليه السلام - ردّ التحية عليهم بخيرٍ من تحيتهم، فإنهم حيّوه بالنصب {سَلَامًا} وحياهم بالرفع {سَلَامٌ}، فهم حيّوه بالجملة الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد، أي: نُسَلِّمُ سَلَامًا، وهو قد حياهم بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت، والاسم أقوى وأثبت من الفعل، فالخليل حياهم بالسلام الشامل الثابت الدائم، فيكون قد حياهم بخيرٍ من تحيتهم، وهذا من حسن استقبال الضيف وإكرامه.

٣- ذكر في سورة الذاريات، أن الخليل جاءهم بعجل، ووصف هذا العجل بأنه سمين، وقرّبه إليهم ليأكلوه، وهذا يدل على الضيف والاحتفاء به، ولم يقل مثل ذلك في سورة (الحجر)، وكل مناسب في سياقه وموطنه.

٤- أن الخليل في آيات (الذاريات) أوجس منهم خيفة، ولم يواجه ضيفه بما أحسّ في نفسه، وهذا أكرم للضيف؛ لأنه متى علم الضيف بخوف المضيف أثر ذلك في نفس الضيف وجعله لا يتناول الطعام بصورة مرضية، وعند النظر في آيات سورة (الحجر) نرى أنه واجههم، فقال مخاطبًا إياهم: (إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ)، ويبدو أن ما جاء في آيات الذاريات هو المناسب لمقام الإكرام، فليس مناسبًا لجو التكريم أن يعلن لضيفه، أنه غير مطمئنٍ إليهم، وأنه منهم خائف، وكل تعبير مناسب للسياق والمقام الذي جاء فيه.

٥- أظهر التعبير أن حالة الخوف والوجل في آيات سورة الحجر، أكثر مما هي في آيات الذاريات، فإنه واجه ضيفه بالخوفٍ منهم، في سورة (الحجر) بالجملة الاسمية المؤكدة بـ (إِنَّ)، وجاء مع ذلك بالصفة المشبهة (وَجِلُونَ) الدالة على شدة الخوف، ثم أخرجه مخرج العموم والشمول لأهل البيت أجمعين، فذكره بصورة الجمع: (إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ)، في حين ذكر ذلك في (الذاريات) بالجملة الفعلية غير المؤكدة، فقال: (فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً) فجاء التعبير بصورة الأفراد، ولا شك أن

الحالة النفسية لسيدنا إبراهيم - عليه السلام - وما صرَّحَ به من شدة الفزع، جعلت المقام لا يتناسب مع الإكرام، فمن المعروف أن التكريم أو الإكرام يحتاج إلى انشراح نفسي وانفتاح، وهو غير موجود في آيات (الحجر)، بل إن كل تعبير فيها يدل على القلق وعدم الارتياح.

٦- التراكيب في آيات الذاريات: (فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً) بتقديم (منهم) على (خيفة)، وهذا التقديم، يفيد الاختصاص والحصر، أي: أن الخوف كان منهم لا من غيرهم، ولو قال: (فأوجس خيفة منهم) لكان أخبر أنه خاف منهم، ولم يخبر أنه لم يخف من غيرهم، بل ربما كان ثمة خوف منهم، ولم يخبر أنه لم يخف من غيرهم، بل ربما كان ثمة خوف آخر من غيرهم، فإن التعبير الوارد في الآية جعل الضيف وحدهم سبب الخوف وقصر ذلك عليهم، وأما التعبير الآخر، أعني: (فأوجس خيفة منهم) فلا يقصر الخوف عليهم، بل ربما كان هناك سبب آخر معهم، وهذا نظير قولك: (بك وثقت) و(وثقتُ بك)، فإن الجملة الأولى أخبرتَ بها أنك قصرت الثقة على المخاطب ولم تثق بأحدٍ آخر، أما الجملة الثانية فإنها تفيد أنك وثقت به ولم تُفدْ أنك قصرت الثقة عليه، بل قد تكون وثقت بغيره أيضاً.

وعلى وجه الجملة جاء مفهوم الضيافة في قصة إبراهيم - عليه السلام - أداة رائعة في كشف وتوضيح كرم الخليل، وكيف أنه استقبل ضيفه في صورة تظهر الكرم والاحترام للضيف، كما أن الخليل أسرع وتخفى في إعداد الطعام؛ حتى لا يوهم الضيف أنه يريد أن يحضر لهم شيئاً، فلعل الضيف أن يكفه عن ذلك ويعذره وهذا منزع لطيف وجميل.

المبحث الثاني

الضيافة في مقام قصة لوط عليه السلام

أظهرت البلاغة القرآنية فضل الضيف، وحمائته، والعمل على راحته، وكيف استطاع لوط - عليه السلام - أن يتصدى لقومه الذين لا يراعون حق الضيف وحرمته، كما كشفت البلاغة القرآنية، أن إهانة الضيف مسبة لا يفعلها إلا أهل السفاهة والشذوذ، وقد جاءت الضيافة في قصة لوط - عليه السلام - في ثلاثة مواضع: في سورة هود، وفي سورة الحجر، وفي سورة القمر.

الموضع الأول: قال تعالى: "وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ . وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ"^(١).

المعنى: لما جاءت رسلنا: (جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت)، لوطا - عليه السلام - كرههم؛ لصنيع قومه بالرجال، مخافة أن يفضحهم، وقال لوط - عليه السلام - هذا يوم فظيع فاش شره عليهم، وجاءه قومه يسرعون إليه مشاة مريدين نكاح الرجال، فقال لهم لوط - عليه السلام -: يا قوم هؤلاء بناتي فتزوجوهن، هن أحل لكم من إتيان

(١) - سورة هود، الآيتان (٧٧، ٧٨).

الرجال، فاتقوا الله في معصيته، ولا تخزون في ضيفي، أليس منكم رجل رشيد^(١).

هذا، وقد جاءت الضيافة في قوله - تعالى - على لسان لوط - عليه السلام -:
(فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي)؛ مظهرة كرم الضيف والعناية به، والمحافظة عليه،
والضيف: هو النازل والطالب للضيافة.

وعند التأمل في السياق، نلمح أن هؤلاء الملائكة، لما انقضى أمر إنبائهم ببشارة
الأولياء وهلاك الأعداء، وغلم من ذلك أنهم لا ينزلون إلا للأمور الهائلة والأحوال
المعجبة، أخذ يقص أمرهم مع لوط (عليه السلام)^(٢)، "وقد ظن لوط - عليه السلام -
الملائكة رجالاً مارين ببيته، فنزلوا عنده للاستراحة والطعام والمبيت"^(٣)، ففعل معهم -
عليه السلام - ما يتوجب للضيف من حسن الاستقبال والضيافة.

والضيافة - في هذا السياق - ظاهرة جلية في قوله - تعالى - على لسان لوط:
(فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد)، فالاستفهام أفاد معنى الإنكار
والتوبيخ، لقوم لوط (عليه السلام)، فالضيف من شأنه أن يكرم ويحافظ عليه، وإهانته
مسبة لا يفعلها إلا السفهاء.

والسياق كشف عن المحافظة على الضيف وإكرامه بصورة لا ينقصها شيء، فلو ط -

-
- (١) - ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان لأبي الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي (ت: ١٥٠هـ)، تح/عبد الله محمود شحاته (٢/٢٩٢)، ط١، دار إحياء التراث، بيروت (١٤٢٣هـ).
(٢) - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لإبراهيم بن عمر البقاعي (ت: ٨٨٥هـ)، (٩/٣٣٧)، ط،
دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، المكتبة الشاملة، موافق للمطبوع.
(٣) - التحرير والتنوير (١٢/١٢٨).

عليه السلام - لما رأى الملائكة على صورة رجال مارين بجوار بيته، أراد أن يفعل معهم ما يتحتم عليه من شأن إكرام الضيف وتقديم المساعدة له؛ لِمَ تعارف عليه في أعارف الناس وعاداتهم، ولكن قومه كانوا أهل سوء فأردوا أن يجلبوا المهانة والمذلة والعار للوط (عليه السلام)، تأمل إخبار القرآن عن هؤلاء القوم: (وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ)، فالبلاغة القرآنية فضحت هؤلاء القوم وما يصرون عليه من فعل الفاحشة، فالتعبير بالمجاز في قوله - تعالى -: (وجاءه قومه)؛ حيث عبر بالكل وأراد البعض، دليل ظاهر على أن فعل الفاحشة قد كسى سائر القوم، حيث صارت الفاحشة صورة مطبوعة على هؤلاء القوم يُعرفون بها وتُعرف بهم، فإسناد المجيء إلى القوم كشّف عن طبيعتهم في فعل الفاحشة، فإذا جاء بعضهم فسيعقبه مجيء بعض آخر في وقت آخر.

والسياق كله يكشف عن إكرام الضيف، والمحافظة عليه، وتقديم المساعدة إليه، تأمل الاستئناف البياني في قوله - تعالى -: (قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ)، فهذه الجملة وقعت جواباً لسؤال قد نشأ "عن جملة وجاءه قومه، إذ قد علم السامع غرضهم من مجيئهم، فهو بحيث يسأل عما تلقاهم به"^(١)، وتظهر قيمة الاستئناف البياني - في هذا المقام - في إظهار مدى المحافظة على الضيف والحياء منه، فلوط - عليه السلام - عرض على قومه بنات نفسه تزويجاً ونكاحاً^(٢)، وقيل: إنه عرض عليهم

(١) - التحرير والتنوير (١٢/١٢٦).

(٢) - "فإن قال قائل: كيف يجوز للمشرك أن يتزوج بمسلمة؟ والجواب: أن ذلك كان جائزاً في شريعتهم. ومنهم من قال: عرض عليهم بشرط الإسلام". تفسير القرآن لأبي المظفر، منصور بن

نساءهم، وسماهن بنات نفسه؛ لأن النبي للأمة بمنزلة الأب^(١)، فالتضحية بالبنات مع قوم غلب عليهم فعل الفاحشة أمام الضيف من عراقة الكرم وأصالة المروعة.

وتأمل البلاغة القرآنية في معاملة الضيف وإيثاره على النفس والأهل في قوله - تعالى - على لسان لوط: (قَالَ يَا قَوْمِ)، فالنداء يحمل معنى الترقيق لقلوب قومه حتى لا يفضحوه أمام ضيوفه، رغم أنه يعلم - عليه السلام - تصلبهم في عاداتهم الدنيئة وأنهم لا يقبلون إلا فعل الفاحشة، وهذا ما دل عليه قوله - تعالى - على لسان أهل الفسق: (قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ)^(٢).

ويجوز أن يكون - عليه السلام - عرض البنات عليهم مبالغة في تواضعه لهم وإظهاراً لشدة غضبه مما أوردوا عليه، طمعاً في أن يستحيوا منه ويرقوا له إذا سمعوا ذلك، فيتركوا له ضيوفه مع ظهور الأمر واستقرار العلم عنده وعندهم أن لا مناكحة بينه وبينهم، ومن ثم قالوا: لقد علمت - مستشهرين بعلمه - ما لنا في بناتك من حق؛ لأنك لا ترى مناكحتنا، وقيل: لما اتخذوا إتيان الذكران مذهباً وديناً لتواطؤهم عليه، كان عندهم أنه هو الحق، وأن نكاح الإناث من الباطل، فلذلك قالوا: ما لنا في بناتك من حق قط، لأن نكاح الإناث أمر خارج من مذهبنا الذي نحن عليه، ويجوز أن يقولوه على وجه الخلاعة، والغرض نفى الشهوة لتعلم ما نريد عن إتيان الذكور وما لهم فيه

→→→

محمد السمعاني (ت: ٤٨٩هـ)، تح/ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس بن غنيم (٢/٤٤٧)، ط ١،

الرياض، السعودية (١٨/١٤١٨هـ / ١٩٩٧م).

(١) - ينظر: تفسير القرآن للسمعاني (٢/٤٤٧).

(٢) - سورة هود، الآية (٧٩).

من الشهوة^(١).

وعلى وجه الجملة كان كرم الضيف في قصة لوط - عليه السلام - ظاهراً واضحاً، فالذي يقدم بناته لقوم هؤلاء معدنهم من الفحش والشذوذ؛ إكراماً وحفاظاً على الضيوف، أجدد بأن يكون للمروعة موضعاً وللكرم أهلاً، فالكرم من خلال هذه القصة ظاهر بين، وقد حرك الأحاسيس واستجلب النفوس نحو المحافظة على الضيف وإكرامه والتصدي لمن أَرادَه بسوء؛ اقتضاءً بمنهج الأنبياء والمرسلين.

الموضع الثاني:

قد أخبر الله سبحانه عن كرم الضيف في قصة لوط - عليه السلام - في قوله: (فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِنَّاتِكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِبْ أَهْلَكَ بِقَطْعِ مَنْ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (٦٦) وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوْلَمْ نُنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)^(٢).

جاء التعبير بالضيف - في قصة لوط - عليه السلام - تكملة لما ذكرت آنفاً في سورة هود - حاملاً معنى الحياء من الضيف، وإكرامه وتقديم سبل الراحة له، فبعد أن جاء الملائكة للوط - عليه السلام - وعرفوه بشأن العذاب الواقع على قومه، وعليه أن يأخذ أهله بالليل ولا يلتفت منهم أحد خلفه، وأن يسيروا حيث أمرهم الله تعالى... إلخ،

(١) - ينظر: الكشاف (٢/٤١٤).

(٢) - سورة الحجر، الآيات (٦١، ٧١).

وقد كان مجيء أهل المدينة إليه ومحاورته معهم كان قبل أن يعلم أنهم ملائكة، ولو علم ذلك لما أشفق مما عزم عليه أهل المدينة لما علم بما عزموا عليه بعد مجادلتهم معه^(١).

وانظر إلى أهل السوء والفاحشة - وهم أهل مدينة سدوم - لما سمعوا أن ضيفاً قد ضاف لوطاً مستبشرين بنزولهم مدينتهم طمعاً منهم في ركوب الفاحشة^(٢)، وقد صور التعبير القرآني هذه الصورة بالفعل المضارع في قوله - تعالى - : (يَسْتَبْشِرُونَ)؛ لإفادة التجدد مبالغة في الفرح، وذلك أنهم علموا أن رجالاً غريباء حلوا ببيت لوط - عليه السلام - ففرحوا بذلك ليغتصبواهم كعادتهم السيئة^(٣).

وانظر إلى حرص نبي الله لوط على محافظة الأضياف وإكرامهم في قوله - تعالى - على لسان نبيه - عليه السلام - : (قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ . وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ)، فالتعبير بالجملة المؤكدة حمل معنى الإصرار على حماية الضيف، وعدم تركه لأهل السوء والفاحشة.

فالتعبير بـ(إِنَّ) في قوله: (قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي) وافق المقام وأصاب موضع الداء؛ "لأنه إذا كان الكلام مع المنكر، كانت الحاجة إلى التأكيد أشد، وذلك أنك أحوج ما تكون إلى الزيادة في تثبيت خبيرك، إذا كان هناك من يدفعه وينكر صحته، إلا أنه ينبغي أن يعلم أنه كما يكون للإنكار قد كان من السامع، فإنه يكون للإنكار يعلم أو يرى أن يكون من السامعين"^(٤)، وما أشد إنكار قوم لوط - عليه السلام - للشرف والمرورة والحقيقة، فهم متشوقون إلى فعل الفاحشة مع ضيوف لوط عليه السلام.

(١) - ينظر: التحرير والتنوير (٦٦/١٤).

(٢) - ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن (١١٧/١٧).

(٣) - ينظر: التحرير والتنوير (٦٦/١٤).

(٤) - دلائل الإعجاز في علم المعاني (ص: ٣٢٧).

وتظهر البلاغة القرآنية في تصدي لوط - عليه السلام - لقومه ضارياً أروع الأمثلة في الشهامة والمروءة، حتى يتعلم الناس قدر الضيف وما ينبغي أن يكون عليه من القدر والاحترام، فكأنه - عليه السلام - يقول لقومه الفاسقين: هؤلاء الذين جئتموهم تريدون منهم الفاحشة، ضيفي، وحق على الرجل إكرام ضيفه، فلا تفضحون أيها القوم في ضيفي، وأكرموني في تركم التعرض لهم بالمكروه، وخافوا الله فيّ، وفي أنفسكم أن يحل بكم عقابه، ولا تدلوني ولا تهينوني فيهم، بالتعرض لهم بالمكروه (١).

وتأمل التعبير البلاغي في قوله - تعالى - على لسان لوط: (فَلَا تَفْضَحُون)؛ إظهاراً لإكرام الضيف وحفاوته، وعدم التعرض له بما يعكر صفوه؛ لأن ذلك منقصة في حق صاحب الضيف، كما تظهر البلاغة القرآنية - في هذا المقام - في تذكير قوم لوط بالوازع الديني، والوازع العرفي، فالوازع الديني، وهو مهمة التبليغ التي جاء بها الأنبياء من النصيحة والأمر بمكارم الأخلاق... إلخ، والوازع العرفي يتمثل في المعايير التي يتعبرون بها في إهانة الضيف، ومذلة مضيفه (٢).

الموضع الثالث:

قال تعالى: (كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّذْرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنَّذْرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ) (٣).

(١) - ينظر: تفسير الطبري (١١٧/١٧).

(٢) - ينظر: التحرير والتنوير (٦٦/١٤).

(٣) - سورة القمر، الآيات (٣٣ - ٣٩).

”جاءت الملائكة في صور الرجال، وكذلك كانت تجيء، فرآهم قوم لوط حين دخلوا القرية...، فأقبلوا إليهم يريدونهم، فتلقاهم لوط يناشدهم الله أن لا يخزوه في ضيفه، فأبوا عليه وجاءوا ليدخلوا عليه، فقالت الرسل للوط خل بينهم وبين الدخول، فإننا رسل ربك، لن يصلوا إليك، فدخلوا البيت، وطمس الله على أبصارهم، فلم يروهم، وقالوا: قد رأيناهم حين دخلوا البيت، فأين ذهبوا؟ فلم يروهم ورجعوا“^(١).

وقد جاء ذكر الضيافة في قوله تعالى: (وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ^(٢) عَنْ ضَيْفِهِ) دالة على إهانة الضيف، والتعدي عليه، وهذا يدل على شدة فسق هؤلاء القوم وفجورهم، فالضيف بدلاً من أن يكرم يهان!.

والبلاغة القرآنية تصور هؤلاء القوم في أبشع وأفظع صورة في ملاحقة الضيف وإهانتته، فتعبير الكلام بالتأكيد بـ(لام) القسم و(قد) التي تفيد التحقيق، تأكيد لما ذكر من قصة لوط - عليه السلام - في شأن الضيوف الذين نزلوا به، وأراد قومه فعل الفاحشة بهم، فعجز لوط عن وعظ قومه وإنذارهم إذ اقتحموا بيته، فأعمى الله - تعالى - أبصارهم فلم يروا كيف يدخلون.

وتأمل التعبير البلاغي بلفظ (المروادة) الذي ترى فيه الحركة والاضطراب، فهو يمثل صورة تجسدية يعلوها الاندهاش والانبهار لما يقدم عليه هؤلاء القوم مع ضيوفهم، رغم العرض والتحذير، الذي يتمثل في عرض نبي الله لوط - عليه السلام -

(١) - تفسير الطبري (٢٢ / ٥٩٨).

(٢) - قال الراغب: ” والمروادة: أن تنازع غيرك في الإرادة، فتريد غير ما يريد، أو ترود غير ما يرود، وراودت فلاناً عن كذا، قال: هي راودتني عن نفسي “. المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين المعروف بالراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ)، ت/صفوان عدنان الداودي (ص: ٣٧١)، ط١، دار القلم، الدار الشامية، بيروت (١٤١٢هـ).

بناته على هؤلاء القوم، وتحذيره لهم من عذاب الله الذي يصيبهم إذا أصروا على أفعالهم الدنيئة، ورغم هذا لم يقتنعوا ولم يستجيبوا، فكان الجزاء من جنس العمل.

وتظهر البلاغة القرآنية في إسناد "المرادة إلى ضمير قوم لوط، وإن كان المرادون نفرا منهم؛ لأن ما راودوا عليه هو مراد جميع القوم، بقطع النظر عن تعيين من يفعله"^(١)، فالقوم جميعهم تكسوم الفاحشة والأفعال الدنيئة، فهم يراودونه ويدفعونه دفعا على فعل الفاحشة؛ ولهذا كانت التعديدية بـ(عن).

وانظر إلى التعبير القرآني الذي تراه وتستشعره من الوسوسة التي تهمس لك حين تقرأ هذه الجملة: (وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ)، وكأنهم لطبيعتهم الدنيئة أرادوا من نبي الله لوط، أن يسهل إليهم الوصول إلى هؤلاء الضيوف لفعل الفاحشة بهم، فجملة: (عن ضيفه) متعلقة بفعل (راودوه) بتقدير مضاف، أي: عن تمكينهم من الضيوف^(٢).

وعند النظر في السياق، نلمح مكانة الضيف واحترامه، فالله - تعالى - أهلك قوم لوط؛ لأنهم لم يعرفوا للضيف حرمة وقدرا لذلك كان العذاب، فالله - تعالى - أخبر بأنه أرسل عليهم العذاب في قوله: (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا)، وهو استئناف بياني ناشئ عن الإخبار عن قوم لوط بأنهم كذبوا بالنذر، وكذلك جملة (تَجَنَّبَاهُمْ بِسَحَرٍ)، وجملة (كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ)، معترضة، وهي استئناف بياني عن جملة نجيناهم بسحر باعتبار ما معها من الحال، أي إنعاما لأجل أنه شكر، ففيه إيماء بأن إهلاك غيرهم لأنهم كفروا، وهذا تعريض بإنذار المشركين وبشارة للمؤمنين.

وفي قوله: (مِنْ عِنْدِنَا) تنويه بشأن هذه النعمة؛ لأن ظرف (عند) يدل على الادخار

(١) - التحرير والتنوير (٢٧/٢٠٦).

(٢) - ينظر: التحرير والتنوير (٢٧/٢٠٦)، وإعراب القرآن وبيانه لمحبي الدين درويش (ت:

١٤٠٣هـ)، (٣٨٨/٩)، ط٤، دار الإرشاد للشئون الجامعية، حمص، سورية، (١٥١٤هـ).

والاستنثار، مثل (لن) في قوله: (وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا)^(١)؛ فذلك أبلغ من أن يقال: (نعمة منا أو أنعمنا)^(٢)، والسياق كله يكشف عن تسلية قلب الرسول - صلى الله عليه وسلم - في موعظة قريش الذين أنذرهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتماروا بالنذر، وإظهار مكانة الضيف والمحافظة عليه.

وقد ظهر من خلال الضيافة في قصة لوط - عليه السلام - في سورة هود، والحجر، والقمر، نتائج أهمها:

١- في سورة (هود) لما جاء الضيف لوط - عليه السلام - كرههم لصنيع قومه بالرجال، وعبر بفظاعة هذا اليوم في قوله: (هذا يوم عصيب)، وفي سورتي (الحجر، والقمر)، لم يصرح لوط - عليه السلام - بأنه كره الضيف لصنيع قومه بالرجال.

وما كان التصريح فيه بكره الضيف - لصنيع قومه الفاحشة - هو الأجدر بكرم الضيف والمحافظة عليه؛ لأن الخوف على الضيف من أصالة الكرم وحسن المروعة، وإن كان كل تعبير هو المناسب للسياق الذي ورد فيه.

٢- في سورة (هود) ظهرت الفاحشة، والعبث بالضيف، وانتهاك حرمة بصورة مباشرة واضحة؛ حيث دل التعبير بالمجاز في قوله - تعالى -: (وَجَاءَهُ قَوْمُهُ) على أن الفاحشة أصبحت علامة ظاهرة في هؤلاء القوم يعرفون بها وتعرف بهم، فهي لهم وهم لها، فإسناد المجيء إلى القوم كشف عن طبيعتهم في فعل الفاحشة حتى شمل ذلك الصغير والكبير، الحاضر والغائب.

أما في سورتي (الحجر، والقمر) فلم تظهر الفاحشة مع الضيف كظهورها في سورة (هود)، وإن كان في كل موضع يدل على انتهاك حقوق الضيف والنيل منه، وكل

(١) - سورة طه، من الآية (٩٩).

(٢) - ينظر: التحرير والتنوير (٢٧/٢٠٥).

موضع بليغ في مقامه.

٣- في سورتي (هود، والقمر) نرى الاستخفاف بالضيف والبطش به انتقل إلى صورة حركية دلت على السرعة والاضطراب والعنف، ففي كلمتي: (يُهْرَعُونَ، رَاوِدُونَ) معنى السرعة وطيش الاندفاع إلى الفاحشة، بينما في سورة (الحجر) لم يظهر هذا المعنى الحركي بصورة واضحة، وهذا يدل على أن استباحة حرمة الضيف في سورتي (هود، والقمر) كان أكثر وأظهر.

٤- الاشتراك في السور الثلاث (هود، والحجر، والقمر) كان واضحاً في النيل من الضيف، وهتك حرمة في فعل الفاحشة، وتصدي لوط - عليه السلام - لهم في كل موضع، وهذا يدل على كرم المروءة، وحسن المحافظة على الضيف.

٥- في سورة (هود) جاء التعبير بالنداء والاستئناف البياني في قوله: (قَالَ يَا قَوْمِ هَوَّلَايَ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ)، الذي كشف عن إكرام الضيف، والمحافظة عليه بصورة تدل على المروءة العالية، فلوط - عليه السلام - عرض على قومه بنات نفسه تزويجاً ونكاحاً، والتضحية بالبنات مع قوم غلبت عليهم الفاحشة مع الضيف من عراقة الكرم وحسن الضيافة.

أما في سورة (الحجر) فقد جاء عرض بناته على قومه بصورة فيها شك، وذلك في قوله: (قَالَ هَوَّلَايَ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ) فكأنه قال: إن فعلتم ما أقول لكم وما أظنكم تفعلون، وهذا لكثرة فسادهم.

وفي سورة القمر، جاءت الآيات دالة على الجزاء والعقاب، فالعطف في قوله - تعالى -: (فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ) تأكيد على أن العذاب تصديق للنذر.

وعلى وجه الجملة ظهر من سيدنا لوط - عليه السلام - إكرام الضيف والاحتفاء به، والمحافظة عليه من تعدي أهل السوء عليه بوجه يحفظ للضيف حقه، وأن حسن الضيافة من كرم الأصل والمروءة، وسنن الأنبياء والمرسلين.

المبحث الثالث

الضيافة في مقام قصة موسى والخضر عليهما السلام

كشفت البلاغة القرآنية، لؤم أهل القرية الذين لم يهتموا بالضيف، وقد كان الاهتمام بالضيف، وتقديم الطعام له أمرًا ثابتًا تعارف عليه الناس في الأمم السابقة منذ الخليل - عليه السلام - كما أظهر المقام لوم وعتاب موسى - عليه السلام - للخضر - عليه السلام - في كونه يبني جدارًا يقرب من السقوط بدون أجر لقوم بخلاء لم يقدموا واجب الضيافة والكرم للضيف، وذلك في قوله تعالى: (فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتِيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا . قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا)^(١).

انطلاق موسى والخضر - عليهما السلام - في رحلتها العلمية حتى إذا أتيا أهل قرية^(٢) استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارًا يريد أن ينقض فهدمه الخضر - عليه السلام - ثم قعد يبنيه، فأقامه جديدًا، فقال موسى - عليه السلام - عمدت إلى قوم لم يطعمونا ولم يضيفونا فأقمت لهم جدارهم فسويته لهم بغير أجر يعني بغير طعام ولا شيء لو شئت لاتخذت عليه أجرًا، فضجر موسى مما رآه يصنع من التكليف لما ليس عليه صبر، قد استطعناهم فلم يطعمونا، وطفناهم فلم يضيفونا، ثم قعدت في غير صنيعه، تبني لهم جدارهم، ولو شئت لأعطيت عليه أجرًا في

(١) - سورة الكهف، الآيتان (٧٧، ٧٨).

(٢) - الجمهور على أنها أنطاكية، وقيل: قرية بأرض الروم. ينظر: روح المعاني (٣٢٦/٨)، وبيان المعاني (مرتب حسب ترتيب النزول) لعبد القادر بن ملاح حويش (ت: ١٣٩٨هـ)، (٤/١٩٤)، ط ١، مطبعة الترقى، دمشق (١٣٨٢هـ / ١٩٦٥م).

عمله^(١).

هذا، وقد جاء التعبير بالضيافة في قوله - تعالى -: (فَأَنْطَلَقًا حَتَّىٰ إِذَا أَتَبَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا)، فلفظ (استطعما) يدل على طلب الطعام وطلب الضيافة، وهو متعلق بـ (إذا)، وقد جاء التعبير بالإظهار في موضع الإضمار في قوله - تعالى -: (استطعما)، ولم يقل (استطعماهم)؛ " لزيادة التصريح، تشنيعاً بهم في لؤمهم، إذ أبوا أن يضيفوهما، وذلك لؤم؛ لأن الضيافة كانت شائعة في الأمم من عهد إبراهيم - عليه السلام - وهي من المواساة المتبعة عند الناس، ويقوم بها من ينتدب إليها ممن يمر عليهم عابر السبيل ويسألهم الضيافة، أو من أعد نفسه لذلك من كرام القبيلة فإبائية أهل قرية كلهم من الإضافة لؤم لتلك القرية" ^(٢).

والقيمة البلاغية في التعبير بالظاهر موضع الضمير، يظهر بصورة جلية عند التأمل في السياق وبنية التراكيب، فجملة (استطعما) محتملة أن تكون في محل جر صفة لقرية، وأن تكون في محل نصب صفة لأهل، وأن تكون جواب (إذا)، وعند تتبع مستتبعات التراكيب، عُلم أن الأول متعين معنى، وأن الثاني والثالث وإن احتملتها الآية بعيدان عن مغزاها، أما الثالث فلأنه يلزم عليه كون المقصود الإخبار بالاستطعام عند الإتيان وأن ذلك تمام معنى الكلام، ويلزمه أن يكون معظم قصدهما أو هو طلب الطعام مع أن القصد هو ما أراد ربك مما قص بعد وإظهار الأمر العجيب لموسى - عليه السلام - وأما الثاني فلأنه يلزم عليه أن تكون العناية بشرح حال الأهل من حيث هم، ولا يكون للقرية أثر في ذلك، وعند التأمل في البلاغة القرآنية، نلاحظ بقية

(١) - ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان (٥٩٧/٢)، وتفسير الطبري (٦٧/١٨).

(٢) - التحرير والتنوير (٧/١٦).

الكلام يشير إليها نفسها، فيتعين الأول ويجب فيه (استطعما أهلها) ولا يجوز (استطعماهم) أصلاً؛ لخلو الجملة عن ضمير الموصوف^(١).

ومن بلاغة التعبير بالظاهر موضع الضمير - في هذا المقام - أن الأهل الثاني في قوله تعالى: (حَتَّىٰ إِذَا أَتِيَٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعْمَا أَهْلَهَا) يحتمل أن يكونوا هم الأولون أو غيرهم أو منهم ومن غيرهم، والغالب على الضيف أنه لا يجد جملة أهلها دفعة بل يقع بصره أولاً على البعض ثم قد يستقرهم، فلعل هذين الضيفين لما أتيا قدر الله - تعالى - لهما استقرار الجميع على التدرج ليتبين به كمال رحمته سبحانه وعدم مؤاخذته - تعالى - بسوء صنيع بعض عباده، ولو قيل: (استطعماهم) تعين إرادة الأولين فأتى بالظاهر؛ إشعاراً بتأكيد العموم فيه، وأنهما - عليهما السلام - لم يتركا أحداً من أهلها حتى استطعماه وأبى، ومع ذلك قوبلوا بأحسن الجزاء^(٢).

ومن البلاغة القرآنية - في هذا المقام - ما يشير إلى لؤم أهل هذه القرية في عدم استطعام الضيف، فلو قيل في غير القرآن الكريم بتركيب أخصر: (فلما أتيا قرية استطعما أهلها) على اعتبار الجملة صفة للقرية - أيضاً - ولا داعي لذكر الأهل أولاً كما في قوله تعالى: (حَتَّىٰ إِذَا أَتِيَٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعْمَا أَهْلَهَا)، أوجب "بأنه جيء بالأهل للإشارة إلى أنهم قصدوا بالإتيان في قريتهم وسألوا فمنعوا، ولا شك أن هذا أبلغ في اللؤم وأبعد عن صدور جميل في حق أحد منهم، فيكون صدور ما صدر من الخضر - عليه السلام - غريباً جداً، لا يقال: ليكن التركيب كذلك وليكن على إرادة الأهل تقديراً أو تجوزاً كما في قوله تعالى: (وسئل القرية)^(٣)، ... إن الإتيان ينسب للمكان

(١) - ينظر: روح المعاني (٨/٣٢٦).

(٢) - ينظر: روح المعاني (٨/٣٢٧).

(٣) - سورة يوسف، من الآية (٨٢).

كأتيت عرفات، ولمن فيه كأتيت أهل بغداد، فلو لم يذكر كان فيه تفويتنا^(١).

والتعبير القرآني الكريم - في هذا المقام - يظهر فضل الضيف في كونه فعل ما فعل في قرية مذموم أهلها؛ حيث إنه فعل الخير مجرد الطاعة، ولم يعبأ - عليه السلام - بفعل أهلها اللئام، والمقام يدل على إباحة الطعام لعابر السبيل، وأنه شرع من قبلنا، ولم يرد في القرآن الكريم ما ينسخه.

وتأمل البلاغة القرآنية - في هذا المقام - في لؤم أهل القرية مع الضيف وعدم رعايته في قوله تعالى: (اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا) بالتشديد، وقرأ ابن الزبير والحسن وأبو رجاء وأبو رزين وأبو محيصن وعاصم في رواية المفضل وأبان بالتخفيف من الإضافة يقال: ضافه إذا كان له ضيفاً وأضافه وضيغه أنزله وجعله ضيفاً^(٢)، والتشديد في الكلمة يشير إلى مزيد من لؤم أهل القرية ومنعهم إكرام الضيف والاحتفاء به، فالزيادة في المبنى تدل على الزيادة في المعنى، والذي أكد هذا المعنى وجعله واضحاً، التعبير بقوله: (فَأَبَوْا) الذي دل على شدة امتناع كرم الضيف وإطعامه، وتأمل الفرق بين قوله تعالى: (فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا) وقولك: (لم يضيفوهما)، فإن التعبير القرآني تراه يدل على ذم أهل القرية لامتناعهم عن إطعام الضيف وإكرامه، وبعدهم كل البعد عن كرم الأصل والمروعة، أما التعبير الآخر، فلم يشير إلى هذه المعاني، سوى عدم الضيافة فقط.

(١) - روح المعاني (٣٢٧/٨).

(٢) - ينظر: جامع البيان في القراءات السبع لعثمان بن سعيد بن عمر الداني (ت: ٤٤٤هـ)، (١٣١٨/٣)، ط ١، جامعة الشارقة، الإمارات (١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م)، والكامل في القراءات والأربعين الزائدة عليها ليوسف بن علي بن جبارة الهذلي الشكري (ت: ٤٦٥هـ)، تح/جمال بن السيد بن رفاعي الشايب (ص: ٥٩٣)، ط ١، مؤسسة سما للتوزيع والنشر (١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م).

ومن البلاغة القرآنية، التعبير بقوله - تعالى -: (فأبوا أن يضيفوهما) دون (فأبوا أن يطعموهما)؛ إشارة إلى أن جل قصد موسى والخضر - عليهما السلام - الطعام دون الميل بهما إلى منزل وإيوائهما إلى محل، وأن التعبير بـ(أبوا أن يضيفوهما) فيه من التشنيع ما ليس في (أبوا أن يطعموهما)؛ لأن الكريم قد يرد السائل المستطعم ولا يعاب كما إذا رد غريبًا استضافه بل لا يكاد يرد الضيف إلا لئيمًا، ومن أعظم هجاء العرب (فلان يطرد الضيف)، وخص سبحانه الاستطعام بموسى والخضر - عليهما السلام - والضيافة بالأهل؛ لأن الاستطعام وظيفة السائل والضيافة وظيفة المسئول؛ لأن العرف يقضي بذلك فيدعو المقيم القادم إلى منزله يسأله ويحمله إليه^(١).

ومن البلاغة القرآنية - في هذا المقام - التعبير بالمجاز في قوله - تعالى -: (يريد أن ينقض) أي: حائطًا مبنياً أراد أن ينقض أشرف على الانقضاض، أي: مال يكاد أن يسقط، فعبر عن إشرافه على الانقضاض بإرادة الانقضاض على طريقة الاستعارة المصرحة التبعية بتشبيهه قرب انقضاضه بإرادة من يعقل فعل شيء فهو يوشك أن يفعله حيث أراده، وهذا من مجاز كلام العرب؛ لأن الجدار لا إرادة له، وإنما معناه قرب ودنا من السقوط^(٢).

وتظهر القيمة البلاغة للتعبير بالمجاز في أصل وكرم الضيف؛ حيث إنه قابل الإساءة بالإحسان، فرغم لؤم أهل القرية إلا أن الضيف فعل ما يتوجب عليه من الخير والمساعدة ابتغاء وجه الله تعالى، وهذا من كرم الأصل والمرودة، وكان هذا سبب الفراق^(٣) دون الأولين؛ لأن ظاهرهما منكر، فكان معذورًا بخلاف هذا، فإنه لا ينكر

(١) - ينظر: روح المعاني (٣٢٩/٨).

(٢) - ينظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي) لأبي محمد الحسين البغوي (ت: ٥١٠هـ)، تح/عبد الرزاق المهدي (٣/٢٠٩)، ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (٢٠٤٢٠هـ).

(٣) - أي: فراق سيدنا الخضر لموسى عليهما السلام.

الإحسان للمسيء، بل يحمد^(١).

والطبيعة البشرية توافق ما فعله موسى - عليه السلام - من إنكار إصلاح الجدار
- بدون مقابل - مع قوم بخلاء لا يحسنون استقبال الضيف، كما أن المقام أظهر لنا
حسن معاملة الضيف للمضيف حتى وإن لم يكن من أصحاب المروءة والأصل، كما
فعل الخضر - عليه السلام - فالمقام مقام تعليم وإفادة.

(١) - ينظر: روح المعاني (٣٣١/٨).

المبحث الرابع

الضيافة في مقام الحث على إكرام الضيف

نبه البيان النبوي الشريف المخاطب نحو ما ينبغي للمسلم أن يتحلى به من المروعة، وكرم الأصل نحو الضيف، وبيان مقدار عدد أيام الضيافة، وأن ما زاد على ذلك هو بمثابة الصدقة والبر، كما أسهم البيان النبوي الشريف - من خلال الألفاظ والمعاني البلاغية - توضيح ما ينبغي أن يكون عليه الضيف في عدم استرخاء مدة الضيافة إلا للضرورة الماسة إلى ذلك؛ لأن في ذلك إحراجا للمضيف وتكليفا له، وتحمله عناء قد زاد عن حده... إلخ، وقد جاءت أحاديث كثيرة تنبه على هذا المعنى منها:

الحديث الأول: ما رواه البخاري ومسلم بإسنادهما:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»^(١).

سبب ورود هذا الحديث ما جاء "عن محمد بن عبد الله بن سلام أنه أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال آذاني جاري، فقال: اصبر ثم عاد إليه الثانية، فقال: آذاني جاري، فقال: اصبر ثم عاد إليه الثالثة، فقال: آذاني جاري، فقال اعمد إلى متاعك فاقدفه في السكة، فإذا أتى عليك آت، فقل: آذاني فتحق عليه اللعنة، من كان

(١) - صحيح البخاري، كتاب الأداب، باب: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (١١/٨) رقم (٦٠١٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب: الحث على إكرام الجار والضيف، ولزوم الصمت إلا عن الخير ويكون ذلك كله من الإيمان (٦٨/١) رقم (٤٧).

يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت" (١).

هذا، وقد جاء الحث على إكرام الضيف في قوله - صلى الله عليه وسلم - (وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ) عطفًا على الإحسان إلى الجار، وعدم التعرض له بالإيذاء والسوء، وهذا يوحي إلى تنبيه السامع وجذبه إلى فعل الخيرات التي ينبغي أن يكون عليها من آمن بالله تعالى واليوم الآخر، فمن صدق بالله، وعلم أنه خبير بما يعمل، ومحاسبه عليه، وأن بيده الثواب والعقاب، يجد في عمل الطيبات، ويدع السيئات، ومن آمن بيوم يحيا فيه الناس جميعًا، وتعرض عليهم فيه أعمالهم من خير أو شر، ويلقون جزاءهم من جنة أو نار، فمن آمن بكل ذلك حري به أن يطمع في الثواب ويسارع إلى الخيرات، وينفر من العقاب باتقائه الشرور (٢).

وقد أسهم البيان النبوي الشريف في توضيح المعنى للمخاطب من خلال تراكيبه البيانية، فالتعبير بالجملة الشرطية وما تتصف به من ترابط وتلاحم بين الشرط والجواب، أسهم في إيقاظ السامع واحتواء فكره على فعل المطلوب في صورة سريعة.

فالتعبير بأداة الشرط (من) حرك من نشاط السامع، وأيقظ سمعه نحو المطلوب في صورة قوية، وكذلك التعبير بفعل الشرط (كان يؤمن بالله واليوم الآخر) جعل السامع في ترقب ويقظة لما يأتي من جواب الشرط، ولا سيما وإن كان المتعلق بالجملة الشرطية يتعلق بدائرة الإيمان بالله واليوم الآخر، فبهما الفوز والغاية، فإذا وقع الجواب (فليكرم ضيفه) على السامع، استقر وتمكن.

(١) - البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف لإبراهيم بن محمد الحسيني (ت: ١١٢٠هـ)،

تح/سيف الدين الكاتب (٢/٢٣١)، ط، دار الكتاب العربي، بيروت.

(٢) - ينظر: المرجع السابق (ص: ١١٩).

وتظهر البلاغة النبوية في التعبير بـ(فاء) السببية التي دخلت على الجواب في قوله - صلى الله عليه وسلم -: (فليكرم ضيفه) فهي هنا للربط السببي وليست للتشريك في الحكم^(١)، ونلمح القيمة البلاغية في البيان النبوي الشريف، من خلال اقتران (فاء) السببية بجواب الشرط؛ حيث إن السامع يعي أن إكرام الضيف يكون بحسن استقباله، فيقابله بوجه باش، ويظهر له المحبة والسرور بحضوره، ويقدم له خير ما عنده من الطعام والشراب ووسائل الراحة، وإن كان ذا سعة والضيف فقير مد إليه يد المعونة، ويودعه كما استقبله، و"الأمر بالإكرام يختلف بحسب المقامات، فربما يكون فرض عين، أو فرض كفاية، وأقله أنه من باب مكارم الأخلاق"^(٢)، التي تساعد على ارتباط سواعد الإخاء والمودة بين المسلمين.

والبيان النبوي الشريف يظهر من خلال تراكيبه وألفاظه أن الشرط والجواب "كهما حكم جملة واحدة، من حيث دخل في الكلام معنى يربط إحداهما بالأخرى، حتى صارت الجملة لذلك بمنزلة الاسم المفرد في امتناع أن تحصل به الفائدة، فلو قلت: إن تأتني وسكت، لم تغد كما لا تغيد إذا قلت: زيد وسكت، فلم تذكر اسماً آخر ولا فعلاً، ولا كان منوياً في النفس معلوماً من دليل الحال"^(٣)، فالشرط رغم أنه جملة لا يتم إلا بالجواب، فهو جملة غير مفيدة وحدها؛ لذلك اعتبرت جملتنا (الشرط) و (الجواب) كالجملة الواحدة.

(١)- ينظر: التراكيب الإسنادية الجمل " الظرفية - الوصفية - الشرطية " للأستاذ الدكتور/ علي أبو

المكارم (ص: ١٨٥)، ط١، مؤسسة المختار، القاهرة (١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م).

(٢)- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري لأحمد بن عبد الملك القسطلاني (ت: ٩٢٣هـ)، (٢٥/٩)،

ط٧، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر (١٣٢٣هـ).

(٣)- أسرار البلاغة لأبي بكر عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ)، تح/عبد الحميد هنداوي (ص: ٨٢،

٨٣)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م).

والبيان النبوي الشريف في مجمله يدل على الإحسان إلى الجار، وإكرام الضيف، وأن يقول المسلم خيراً أو ليصمت، وهذا من جوامع كلمه - صلى الله عليه وسلم - فالأول: يدل على التخلية عن الرذائل، والثاني: يدل على التحلية بالفضائل، والثالث: يشير إلى القولية؛ لأن القول كله إما خير، وإما شر، وإما آيل إلى أحدهما، فدخل في الخير كل مطلوب من الأقوال فرضها وندبها، فأذن فيه على اختلاف أنواعه، ودخل فيه ما يؤول إليه، وما عدا ذلك مما هو شر أو يؤول إلى الشر فأمر عند إرادة الخوض فيه بالصمت، فينبغي على من كان له صفة التعظيم لأمر الله أن يتصف بالشفقة على خلق الله عز وجل إما قولاً بالخير أو سكوتاً عن الشر، وإما فعلاً لما ينفع، أو تركاً لما يضر^(١).

الحديث الثاني: ما رواه البخاري ومسلم بإسنادهما:

"عَنْ أَبِي شُرَيْحِ الْعَدَوِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ أُذْنَائِي، وَأَبْصَرْتُ عَيْنَايَ، حِينَ تَكَلَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَانِزَتَهُ» قَالَ: وَمَا جَانِزَتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ، وَالضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، فَمَا كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ عَلَيْهِ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُقِلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»^(٢).

دل البيان النبوي الشريف على الضيافة وإكرام الضيف، وأن الضيافة تكون ثلاثة أيام، وما زاد عن ذلك فهو صدقة في قوله - صلى الله عليه وسلم - (وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ

(١) - ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري لمحمد محمود العيني (ت: ٨٥٥هـ)، (١١١/٢٢)، ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، والأدب النبوي (ص: ١٢٠).

(٢) - صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (١١/٨) رقم (٦٠١٩)، ومسلم، كتاب اللقطة، باب الضيافة ونحوها (٣/ ١٣٥٢) رقم (٤٨).

بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمِ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ ... وَالضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ؛ إشارة إلى إكرام الضيف والقرى له، وأن ذلك من مكارم الأخلاق، فالرسول - صلى الله عليه وسلم - يبين للسامع ما يتوجب على المسلم أن يكون عليه تجاه النازل عنده من شأن الضيافة والعطاء.

هذا، وعند المقارنة بين هذا الحديث والحديث السابق، نلاحظ أن هذا الحديث يزيد في بيان مقدار الضيافة والعطاء، فالحديث السابق كان عامًا في كرم الضيف، فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، وجاء هذا الحديث تفصيلًا للضيافة ومقدارها؛ حتى يتحرى المسلم مكارم الأخلاق والفضيلة.

فالبيان النبوي الشريف يبين للسامع ما ينبغي للمسلم أن يكون عليه من مكارم الأخلاق والمروعة تجاه ضيفه، فأظهر وبين - صلى الله عليه وسلم - على طريق التفصيل والعد بأن للضيف جائزته و"هي العطاء مشتقة من الجواز؛ لأنه حق جوازه عليهم، وانتصابه بأنه مفعول ثان للإكرام؛ لأنه من معنى الإيعاء أو هو كالظرف أو منصوب بنزع الخافض أي: بجائزته"^(١)، ومقدار الضيافة ثلاثة أيام، وما زاد على ذلك فهو على سبيل الصدقة والبر.

فالبيان النبوي الشريف يبين بما لا يدع مجالًا للشك أن للضيف جائزة (عطية) مقدارها يوم وليلة يتكلف فيها صاحب البيت " فيزيده في البر، وفي اليومين الآخرين يقدم له ما يحضره، فإذا مضى الثلاث فقد مضى حقه، وما زاد عليها فهو صدقة"^(٢).

(١) - عمدة القاري (١١١/٢٢).

(٢) - عمدة القاري (١١١/٢٢).

وتظهر البلاغة النبوية في التفصيل والعد في قوله - صلى الله عليه وسلم - (والضيافة ثلاثة أيام)؛ إظهارًا للمطلوب في صورة واضحة لما ينبغي أن يكون للضيف من القرى وتقديم الطعام ثلاثة أيام، ثم يعطى ما يجوز فيه مسافة يوم وليلة، وأكثره قدر ما يجوز به المسافر من منهل إلى منهل^(١)، فالبيان الشريف يوضح ويقرر ما يلزم الضيف من الطعام وتكليف النفس من تقديم الطعام النفيس في يوم وليلة، واليومين الآخرين يقدم له صاحب البيت الموجود من الطعام، وهذا بيان نبوي ظاهر في الاحتفاء بالضيف والعمل على إكرامه؛ لأن في ذلك مكارم الأخلاق وسنن الأنبياء والمرسلين.

والبيان النبوي الشريف، يظهر بلاغته - صلى الله عليه وسلم - في الجمع بين كرم الجار، وبين إكرام الضيف؛ لما فيه من حسن الأخلاق والمروعة، فكيف لما لا يحسن إلى جاره أن يكرم ضيفه، وكيف لمن يكرم ضيفه أن لا يحسن إلى جاره.

كما بين البيان النبوي الشريف ما ينبغي للمسلم أن يكون عليه من القول السديد والحكمة، فإن لم يحسن قول الخير والدعوة إليه فليسكت؛ تجنبًا للإفساد بين الناس، وفي ذلك إشارة نبوية إلى المحافظة على النفس والغير، وتجنب السوء قبل وقوعه، فسلح اللسان عظيم.

الحديث الثالث: ما رواه الإمام مسلم بإسناده:

"عَنْ أَبِي شُرَيْحِ الْخُرَاعِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، وَجَائِزَتُهُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ، وَلَا يَحِلُّ لِرَجُلٍ مُسْلِمٍ أَنْ يُقِيمَ عِنْدَ أَخِيهِ حَتَّى يُؤْتِمَهُ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ يُؤْتِمُهُ؟ قَالَ: «يُقِيمُ عِنْدَهُ وَلَا شَيْءَ لَهُ يَفْرِيهِ بِهِ»^(٢).

(١) - ينظر: عمدة القاري (١١١/٢٢).

(٢) - صحيح مسلم، كتاب اللقطة، باب الضيافة ونحوها (٣/ ١٣٥٣) رقم (٤٨).

كشف البيان النبوي الشريف، عن الاهتمام بالضيافة وموقعها وأنها من متأكدات الإسلام، و" تأول الجمهور هذه الأحاديث وأشباهاها على الاستحباب ومكارم الأخلاق" (١).

والبيان النبوي الشريف، يوضح أهمية الضيافة وأنها تكون ثلاثة أيام؛ حيث يكون الاهتمام واللفظ بالضيف في اليوم واللييلة من البر والصلة، واليوم الثاني والثالث ما تيسر له من الطعام والكرم، ولا يزيد عن عادته في بيته، وما زاد عن ذلك من أيام الضيافة فهو صدقة إن شاء فعل وإن شاء ترك (٢).

وعند التأمل في البيان النبوي الشريف، نلمح أن قوله - صلى الله عليه وسلم - (الضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، وَجَائِزَتُهُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ) يدل على أن الجائزة (العطية) بعد الضيافة، وهو أن يُقرى ثلاثة أيام، ويُعطى ما يجوز به مسافة يوم ولييلة، وهذا من بلاغة النبوة؛ حيث إن تقديم العطية بعد الضيافة يعد من مكارم الأخلاق ودوام المودة بين المسلمين، فإذا ما قام المضيف بالإكرام والقرى للضيف ثم أتبعه بجائزته غمرته السعادة والصفاء.

ثم تأمل التعبير بلفظ (الجائزة) واستخدام البيان النبوي الشريف لها في هذا المقام، ما يشعر بالجو النفسي الذي كان عليه المضيف حال استقبال الضيف، فكأن إكرام هذا الضيف وإعطائه تلك الجائزة عند ذهابه ورجوعه إلى موطنه بمثابة النجاح للضيف.

(١) - المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج لأبي زكريا محيي الدين يحيى النووي (ت: ٦٧٦هـ)،

(٣١/١٢)، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت (١٣٩٢هـ).

(٢) - ينظر: شرح النووي على مسلم (٣١/١٢).

وتأمل البلاغة النبوية في اصطفاء التراكيب، فقوله - صلى الله عليه وسلم - (وَجَائِزَتُهُ) جملة مستأنفة بيان للأولى، كأنه قيل: كيف يكرمه؟ فأجيب: جائزته، ولا بد من تقدير مضاف أي: زمان جائزته، أي بره وإلطافه يوم وليلة^(١).

وعند النظر في البيان النبوي الشريف، نلمح أنه قد بدأ فيما يخص المضيف؛ تأكيداً وتوضيحاً للسامع فيما ينبغي أن يكون عليه المضيف، وأما ما يتعلق بالضيف فقد أظهره البيان النبوي الشريف في قوله - صلى الله عليه وسلم - (وَلَا يَحِلُّ لِرَجُلٍ مُسْلِمٍ أَنْ يُقِيمَ عِنْدَ أَخِيهِ حَتَّى يُؤْتِمَهُ) إجمال نبوي لما ينبغي أن يتحلى به الضيف، فكما استحب الإسلام الاهتمام بالضيف والعمل على إكرامه، أوجب على الضيف أن يكون خفيف الحركة مراعيًا الأدب والشعور النفسي لصاحب البيت، فلا يحل لرجل مسلم يتحلى بسماحة الإسلام وتعاليمه أن يقابل الكرم والحفاوة التي وجدها من المضيف بأن يوقعه في الذنوب والمعاصي؛ حيث إن الضيف إن طالت إقامته عند صاحب البيت " قد يغتابه لطول مقامه أو يعرض له بما يؤذيه أو يظن به مالا يجوز"^(٢)، وقد نهى الله تعالى عن الظن بقوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِتْمٌ)^(٣).

(١) - ينظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن) لشرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (ت: ٧٤٣هـ)، تح/ عبد الحميد هنداوي (٩/ ٢٨٦٦)، ط ١، مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة - الرياض)، (١٧٤١٧هـ - ١٩٩٧م).

(٢) - شرح النووي على مسلم (٣١/١٢).

(٣) - سورة الحجرات، من الآية (١٢).

فالبیان النبوی الشریف فی قوله: (وَلَا يَحِلُّ لِرَجُلٍ مُسَلِّمٍ أَنْ يُقِيمَ عِنْدَ أَخِيهِ حَتَّى يُؤْتَمَّهُ)، وفي رواية: ”وَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَثْوِيَ^(١) عِنْدَهُ حَتَّى يُحْرِجَهُ“^(٢) بين للسامع حدود الأدب الذي ينبغي للضيف أن يتحلى بها، وهنا إشارة لطيفة يظهرها البيان النبوي الشريف، وهي أن الإسلام قد رعى ثواب المضيف لما قدمه للضيف من كرامة وحسن استقبال، وانشغاله بالضيف وتعطيل مصالحه فترة الضيافة، فلم يبح للضيف أن يكون سبباً في استجلاب الإثم وسوء الظن لمن قام بإكرامه وإيثاره على نفسه وأهل بيته.

وتظهر البلاغة النبوية في التفصيل بعد الإجمال في قوله - صلى الله عليه وسلم - (يُقِيمُ عِنْدَهُ وَلَا شَيْءَ لَهُ يُقْرِبُهُ بِهِ)، فعند استتباع التراكم والوقوف على قرآن الأحوال، نلاحظ أن الإثم الذي يقع على المضيف وسوء الظن "محمول على ما إذا أقام بعد الثلاث من غير استدعاء من المضيف، أما إذا استدعاه وطلب زيادة إقامته أو

(١) - (الثواء): الإقامة بالمكان، يعني لا يقيم عنده بعد الثلاث حتى يضيق صدره، لكن هل هذا في الأيام الثلاثة أم فيما زاد عليها؟ فأما فيما ليس بواجب، فلا شك في تحريمه، وأما في ما هو واجب وهو اليوم والليلة فينبى على أنه هل تجب الضيافة على من لا يجد شيئاً أم لا تجب إلا على من وجد ما يضيف به؟ فإن قيل: إنها لا تجب إلا على من يجد ما يضيف به - وهو قول طائفة من أهل الحديث، منهم حميد بن زنجويه - لم يحل للضيف أن يستضيف من هو عاجز عن ضيافته، وقد نهى المضيف أن يتكلف للضيف ما ليس عنده دل على أنه لا تجب عليه المواساة للضيف إلا بما عنده، فإذا لم يكن عنده فضل لم يلزمه شيء، وأما إذا أثر على نفسه، فذلك مقام فضل وإحسان، وليس بواجب. ينظر: شرح صحيح البخاري لأبي الحسن علي بن خلف المشهور بابن بطلال (ت: ٤٤٩هـ)، تح/أبو تميم ياسر بن إبراهيم (٣٠٩/٩)، ط٢، مكتبة الرشد، السعودية، (١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م)، وجامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم لزين الدين عبد الرحمن بن رجب الحنبلي (ت: ٧٩٥هـ)، تح/شعيب الأرنؤوط - إبراهيم باجس (٣٥٩/١)، ط٧، مؤسسة الرسالة، بيروت (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م).

(٢) - صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه (٣٢/٨) رقم (٦١٣٥).

علم أو ظن أنه لا يكره إقامته فلا بأس بالزيادة؛ لأن النهي إنما كان لكونه يؤثمه وقد زال هذا المعنى" (١)، فإذا أقام الضيف عند المضيف أكثر من ثلاثة أيام بإذن المضيف (صاحب البيت) فلا شيء على الضيف؛ لزوال سبب النهي، وهذه لفتة نبوية دعا إليها البيان النبوي الشريف، وهي دوام المودة والصلة بين المسلمين، حيث أوجب للمضيف أن يستقبل الضيف ثلاثة أيام، وما زاد عن ذلك هو صدقة وصلة وبر؛ وبذلك تقوى سواعد الإخاء بين المسلمين، ويعم الرخاء بين الضيف والمضيف، وأن الزيادة في الخيرات تزيد في قوة الترابط الاجتماعي والنفسي بين أبناء الفصيل الواحد.

الحديث الرابع: ما رواه البخاري ومسلم بإسنادهما:

"عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، أَنَّهُ قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ تَبَعْتُنَا فَنَنْزِلُ بِقَوْمٍ فَلَا يَقْرُونَنَا، فَمَا تَرَى؟ فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ نَزَلْتُمْ بِقَوْمٍ فَأَمَرُوا لَكُمْ بِمَا يَنْبَغِي لِلضَّيْفِ، فَأَقْبَلُوا، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا، فَخُدُوا مِنْهُمْ حَقَّ الضَّيْفِ الَّذِي يَنْبَغِي لَهُمْ» (٢).

اتفق العلماء على أن هذا كان قبل الفتوح ووضع الخراج للضرورة، وأما اليوم فالضيافة من مكارم الأخلاق وسنن المرسلين، واحتمل أن يكون الخطاب للمسلمين الذين يمرون على أهل الذمة، وقد شرط الإمام عليهم ضيافة من يمر بهم من المسلمين، أو يكون المراد بهم المضطرين في المخمصة، وإلا فلا يحل أخذ مال الغير بدون رضاه (٣).

(١) - شرح النووي على مسلم (٣١/١٢).

(٢) - صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب إكرام الضيف، وخدمته إياه بنفسه (٣٢/٨) رقم (٦١٣٧)، وصحيح مسلم، كتاب اللقطة، باب الضيافة ونحوها (٣/١٣٥٣) رقم (١٧٢٧).

(٣) - ينظر: شرح مصابيح السنة للإمام البغوي لمحمد بن عز الدين المشهور بابن الملك (ت: ٨٥٤هـ)، تح/ لجنة مختصة بإشراف: نور الدين طالب (٤/٥٧٥)، ط ١، إدارة الثقافة الإسلامية (٣٣/١٤٣٣هـ/٢٠١٢م)، والكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري لأحمد بن إسماعيل

هذا، وقد بين البيان النبوي الشريف - في هذا المقام - آداب وأخلاق سامية من خلال الجملة الشرطية في قوله - صلى الله عليه وسلم - (إِنْ نَزَلْتُمْ بِقَوْمٍ فَأَمَرُوا لَكُمْ بِمَا يَنْبَغِي لِلضَّيْفِ، فَاقْبَلُوا)، فالجملة الشرطية وما تحمله من جواب يرتبط ارتباطاً وثيقاً بفعل الشرط، كشفت للسامع أن الشرع الحنيف إذا كان قد عني بالضيف وحقه لدى المضيف، فقد حث الضيف على أن يرضى بما يقدم إليه، ولا يعيبه، فما عاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - طعاماً قط، كان إذا قدم إليه طعام، إن اشتهاه وقبلته نفسه أكله، وإن لم يشتهه، ولم تقبل عليه نفسه سكت وتركه، ولم يعبه، فما لا تشتهيه نفسك قد تشتهيه نفس غيرك.

وعند التأمل في السياق والوقوف على قرآئن الأحوال، نلاحظ أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يجيب على سؤال أحد الصحابة - رضي الله عنهم - في سؤالهم: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ تَبْعْتُنَا فَنَنْزِلُ بِقَوْمٍ فَلَا يَقْرُونَنَا، فَمَا تَرَى؟) أي: ترسلنا في أقطار البلاد للغزو، فننزل في سفرنا عند قوم من الأعراب مجتمعين في مكان، فلا يعطون القرى ولا يضيفون، فما تقول وتحكم في ذلك، هل نأخذ منهم حق الضيافة بالقوة، أو نتركهم ولا نتعرضهم؟ فكان الجواب منه - صلى الله عليه وسلم - بالجملة الشرطية التي تدل على التفصيل والتنبيه للسائل فلا يحتاج بعدها إلى تأويل أو إيضاح، ولا سيما أن المقام مقام تعليم واسترشاد، فالسائل يسأل، قائد الأمة ومشرعها - صلى الله عليه وسلم - فكانت الإجابة واضحة مفصلة في قوله: (إن نزلتم بقوم...) أي: صرتم في سفركم نازلين عند قوم ضيفاً فجمعوا وأعطوا لكم بما يكفي للضيف ويليق بهم قلة وكثرة، فاقبلوا أيها النازلون ذلك القرى الذي ينبغي ويليق بكم، فإن لم يفعلوا ولم يعطوا لكم

→→→

بن عثمان الكوراني (ت: ٨٩٣هـ)، تح/الشيخ أحمد عزو عناية (٩/٤٨٨)، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م).

القرى فخذوا منهم حق الضيف الذي يكفي، والجمهور حمل هذا على المضطرين؛ لأنَّ ضيافتهم واجبة وقت الضرورة^(١).

والبيان النبوي الشريف في مجمله يؤكد ما كان عليه العرب قبل الإسلام، من إكرام الضيف، والاحتفال به، بل ويعدون هذا من مفاخرهم، ومن أمهات مكارم أخلاقهم، وكذلك الرسائل السابقة وفي مقدمتها شريعة إبراهيم - عليه السلام - اهتمت بالضيف، وحثت على الإحسان إليه، وامتدحت من يكرمه، وجاء الإسلام فأكد هذه الشريعة، وجعلها من الإيمان، في قوله - صلى الله عليه وسلم - "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه" ولم يكتف بهذا، بل جعل الضيافة حقًا واجبًا للضيف على من ينزل به كما مر في الحديث محل الدراسة.

الحديث الخامس: ما رواه الإمام الطبراني بإسناده:

"عَنْ مُجَمِّعِ بْنِ يَحْيَى بْنِ حَارِثَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ عَمِّي خَالِدَ بْنَ زَيْدِ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "بَرِيءٌ مِنَ الشُّحِّ: مَنْ أَدَّى الزَّكَاةَ، وَقَرَى الضَّيْفَ، وَأَعْطَى فِي النَّائِبَةِ"^(٢).

"(بريء من الشح) الذي هو أشد البخل (من أدى الزكاة) الواجبة إلى مستحقها (وقرى الضيف) إذا نزل به (وأعطى في النائبة) أي: أعان الإنسان على ما ينوبه أي: ينزل به من المهمات والحوادث"^(٣).

(١) - ينظر: الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم لمحمد الأمين بن عبد الله الهزري الشافعي، مراجعة: لجنة من العلماء برئاسة البرفسور/ هاشم محمد علي مهدي (١٩/٨١، ٨٠)، ط١، دار المنهاج، دار طوق النجاة (١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م).

(٢) - أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، باب الخاء، خالد بن زيد الأنصاري (٤/١٨٨) رقم (٤٠٩٦).

(٣) - فيض القدير شرح الجامع الصغير لزين الدين محمد المناوي (ت: ١٠٣١هـ)، (٣/١٩٨)، ط١، المكتبة التجارية الكبرى، مصر (١٣٥٦هـ).

وجاء التعبير بالضيف في قوله - صلى الله عليه وسلم - (وَقَرَى الضَّيْفَ) معطوفاً على تأدية الزكاة الواجبة على القادر من المسلمين حين بلوغ ماله النصاب، ما يدل على أهمية الضيافة في الإسلام، والعمل على تحقيقها، فكونها معطوفة على أحد أركان الإسلام، يدل على قيمتها العالية في الشريعة الإسلامية، وأنها من مكارم الأخلاق وسنن المرسلين.

وعند التأمل في السياق، نلاحظ أن البيان النبوي الشريف، ساق الكلام بأسلوب بياني يحرك من نشاط السامع، ويجذب فكره وعقله، فجملة (مَنْ أَدَّى الزُّكَاةَ) استئناف بياني للجملة الأولى، فكأن السامع سأل نفسه بعد أن سمع قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - (بِرِيءٍ مِّنَ الشُّحِّ)، فقال: من الذي يبرأ من الشح؟ فكان الجواب من الرسول - صلى الله عليه وسلم - (مَنْ أَدَّى الزُّكَاةَ، وَقَرَى الضَّيْفَ، وَأَعْطَى فِي النَّائِبَةِ)، فحين وقع الجواب على ذهن السامع تلقاه بالتأكيد والاهتمام، ولا سيما وأن الشح مذموم عند العرب، فـ " الشح أبلغ في المنع من البخل، والبخل في أفراد الأمور وخواص الأشياء، والشح بالماء والمعروف، وقيل: الشحيح البخيل مع التحرص " (١)، فالقيمة البلاغية للبيان النبوي الشريف تظهر في إيقاظ السامع نحو البراءة من الشح الذي تدمه العرب، والشريعة الإسلامية، والدعوة إلى إكرام الضيف، وتأدية الزكاة، والعطاء عند المهمات والحوادث، وهذا كله من مكارم الأخلاق، وسنن الأنبياء.

وعند التأمل في البيان النبوي الشريف، نلاحظ أن المقام مقام عطاء وسخاء، ونفير من الشح والبخل، فالذي يؤدي زكاة ماله، ويساعد الناس في حاجتهم ومصائبهم، لا ينفك عنه أن يكون كراماً لضيفه، فالبيان النبوي الشريف من جوامع كلمه - صلى الله عليه وسلم - ينبه على العطاء، والمشاركة، والترابط، ونبذ الشح، والوحدة، والاختلاف.

(١) - عمدة القاري (٢٧٩/٨).

الحديث السابع: ما رواه الإمام البيهقي بإسناده:

"عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " كَانِ أَوَّلَ مَنْ ضَيَّفَ الضَّيْفَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ " (١).

دل البيان النبوي الشريف على أن الخليل إبراهيم - عليه السلام - أول من ضيف الضيف، وهذا البيان الشريف يؤكد ما نص عليه القرآن الكريم فيما سبق من قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - في كرم الضيف والنحر له... إلخ.

وقد جاء الخبر في البيان النبوي الشريف خاليًا من التوكيد؛ لأن المخاطب به خالي الذهن من الحكم فلا يحتاج إلى توكيد، وتظهر القيمة البلاغية في التعبير بالضيف في هذا المقام، للتنبيه والاقترضاء بالخليل - عليه السلام - في القرى للضيف، وحسن استقباله، والعمل على راحته.

(١) - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، إكرام الضيف (١٣٦/١٢) رقم (٩١٧٠).

المبحث الخامس

الضيافة في مقام أدب الضيف والمضيف

أيقظ البيان النبوي الشريف المخاطب إلى أدب الضيافة، وما ينبغي على الضيف والمضيف أن يقوموا به نحو الآخر؛ وذلك من خلال الألفاظ والمعاني البلاغية التي ساعدت على تنبيه المخاطب نحو المطلوب في صورة سريعة، كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

الحديث الأول، ما رواه البخاري ومسلم بإسنادهما:

”عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، يُكْنَى أَبُو شُعَيْبٍ، فَقَالَ لِغُلَامٍ لَهُ قَصَابٌ^(١): اجْعَلْ لِي طَعَامًا يَكْفِي خَمْسَةَ، فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَدْعُو النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَامِسَ خَمْسَةَ، فَإِنِّي قَدْ عَرَفْتُ فِي وَجْهِهِ الْجُوعَ، فَدَعَاهُمْ، فَجَاءَ مَعَهُمْ رَجُلٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ هَذَا قَدْ تَبِعْنَا، فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَأْذَنَ لَهُ، فَأَذِنَ لَهُ وَإِنْ شِئْتَ أَنْ يَرْجِعَ رَجَعَ»، فَقَالَ: لا، بَلْ قَدْ أَذِنْتَ لَهُ^(٢).

بين هذا الحديث الشريف ما ينبغي للضيف أن يفعله إذا تبعه غير من دعاه صاحب الطعام، فهذا الرجل الأنصاري (أبو شعيب) قال لغلامه اجعل لي طعامًا يكفي خمسة أفراد؛ لأنه يريد أن يدعو رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن جالسه، فقد رأى في وجه النبي - صلى الله عليه وسلم - علامات الجوع، فدعاهم، فجاء معهم رجل،

(١) - الشخص الذي يحترف ذبح الحيوانات، وتجهيزها، وبيع لحمها، والقَصَبُ: عُروِق الرِّئَةِ، وَهِيَ مَخْرُجُ الْأَنْفَاسِ وَمَجَارِيهَا". لسان العرب، مادة (ق ص ب)، (١/٦٧٦).

(٢) - صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب ما قيل في اللحم والجزار (٣/٥٨) رقم (٢٠٨١)، ومسلم، كتاب الأشربة، باب ما يفعل الضيف إذا تبعه غير من دعاه صاحب الطعام، واستحباب إذن صاحب الطعام للتابع (٣/١٦٠٨) رقم (٢٠٣٦).

فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - إن هذا قد تبعنا، فإن شئت أن تأذن له، فأذن له، وإن شئت أن يرجع رجع، فقال المضيف: لا بل قد أذنت له (١).

وعند التأمل في السياق، نلاحظ أن هذا البيان النبوي الشريف، يدل على أدبه - صلى الله عليه وسلم - وحسن تعامله وتلطفه مع المضيف؛ كي لا يحمله ما لا يطيق من الضيافة، فالبلاغة النبوية كشفت عن هذا الأدب والتلطف مع المضيف في قوله - صلى الله عليه وسلم - (إِنَّ هَذَا قَدْ تَبِعَنَا^(٢))، فالتعبير بـ (إِنَّ، وَقَدْ، والفعل الماضي) يؤكد أن هذا الذي تبع الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن جالسه لم يكن موجوداً حين دعا المضيف الأضياف؛ لأنه لو كان معهم حالة الدعوة لدخل فيها ولم يحتج إلى الاستئذان، والمقام يدل على بيان ما كانوا فيه من شظف العيش وقلة الشيء، وأنهم كانوا يؤثرون بما عندهم طاعة لله ورسوله صلوات الله وسلامه عليه.

كما ظهرت بلاغته - صلى الله عليه وسلم - في استخدام اسم الإشارة (هذا)؛ حفاظاً لماء وجه الرجل الذي صحب الأضياف، وتأكيداً على حق المضيف في قبول ضيافة هذا الرجل أو رفضه له.

ومن فيض بلاغته - صلى الله عليه وسلم - أنه لم يبح - صلى الله عليه وسلم - باسم هذا الرجل أو كنيته؛ إذ لو قال - صلى الله عليه وسلم - هذا فلان ابن فلان من بلد كذا، لكان هذا تصريحاً عملياً بإلزام صاحب البيت في قبول ضيافة هذا الرجل الزائد على الأضياف.

(١) - ينظر: عمدة القاري (١١/١٩٧).

(٢) - (تبعنا) تبع فعل ماض مبني على الفتح، والفاعل ضمير مستتر جوازاً تقديره (هو) يعود على الرجل الذي تبع الرسول - صلى الله عليه وسلم - في الضيافة، و(نا) ضمير مبني في محل نصب مفعول به.

وعند استتباع التراكيب، نلمح بلاغته العالية - صلى الله عليه وسلم - في استخدام الجملة الشرطية في قوله: (فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَأْذَنَ لَهُ، فَأَذْنُ لَهُ وَإِنْ شِئْتَ أَنْ يَرْجِعَ رَجَعَ)، فالجملة الشرطية - في هذا المقام - جعلت المضيف هو الحَكْمُ في قبول ضيافة هذا الرجل، فَإِنْ شَاءَ قَبْلَ، وَإِنْ شَاءَ رَفُضَ، فلم يستخدم الرسول الله - صلى الله عليه وسلم - سلطته ومقامه الشريف في قوله على سبيل المثال: (إيذن لهذا) أو نحوه، وإنما جعل - صلى الله عليه وسلم - صاحب المنزل هو الحاكم والناهي، فبأمره هو أن يتناول التابع مع الضيوف الطعام أم لا، وهذه لفظة بلاغية من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في عدم كسر خاطر صاحب البيت؛ إذ لو تحكم المدعو وصحب إلى بيت المضيف ما شاء، كان هذا بمثابة الظلم له وبتحميله ما لا يطيق، مع أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - له أن يتصرف في مال كل واحد من الأمة بغير حضوره وبغير رضاه؛ لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - أبٌ لكل مؤمن، ولكنه لم يفعل ذلك إلا بالإذن؛ تطيباً للقلوب، ومراعاة للمشاعر^(١).

والبيان النبوي الشريف في هذا المقام يدل على معان عدة يجب أن يتحلى بها الضيف والمضيف أهمهما^(٢):

- ينبغي لصاحب الطعام إذا استأذن الضيف فيمن تبعه أن يأذن له، كما فعل أبو شعيب الأنصاري، وهذا من مكارم الأخلاق.
- يستحب لمن دعا من له منزلة إلى طعامه أن يدعو معه أصحابه الذين هم أهل مجالسته.
- ينبغي لمن أراد أن يدعو جماعة أن يصنع لهم من الطعام كفايتهم ولا يضيق

(١)- ينظر: عمدة القاري (١١/١٩٨).

(٢)- ينظر: عمدة القاري (١١/١٩٨).

عليهم، محتجًا بأن طعام الواحد يكفي الإثنين وطعام الإثنين يكفي الأربعة وطعام الأربعة يكفي الثمانية، لأنه لا ينبغي التقتير مع الضيف.

- يجب على الضيف إذا استأذن لمن تبعه أن يتلطف في الاستئذان ولا يتحكم على صاحب المنزل.

- أنه يستحب للضيف إذا استأذن لمن تبعه أن يعلم صاحب الدعوة أن الأمر في الإذن إليه، وأنه ليس للضيف أن يحتكم عليه ويدعو معه من أراد، كما لا يجوز التطفل والذهاب بغير دعوة إلى طعام؛ مراعاة لظروف الداعي وعدم تكليفه ما لا يطيق.

الحديث الثاني ما رواه الإمام مسلم بإسناده:

" عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرِ، قَالَ: نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَبِي، قَالَ: فَقَرَّبْنَا إِلَيْهِ طَعَامًا وَوُطْبَةً^(١)، فَأَكَلَ مِنْهَا، ثُمَّ أَتَى بِتَمْرٍ فَكَانَ يَأْكُلُهُ وَيُلْقِي النَّوَى بَيْنَ إصْبَعَيْهِ، وَيَجْمَعُ السَّبَابَةَ وَالْوُسْطَى - قَالَ شُعْبَةُ: هُوَ ظَنِّي وَهُوَ فِيهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ الْقَاءَ النَّوَى بَيْنَ الإصْبَعَيْنِ - ثُمَّ أَتَى بِشَرَابٍ فَشَرِبَهُ، ثُمَّ نَاولَهُ الَّذِي عَنْ يَمِينِهِ، قَالَ: فَقَالَ أَبِي: وَأَخَذَ بِلِجَامِ دَابَّتِهِ، ادْعُ اللَّهُ لَنَا، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ، بَارِكْ لَهُمْ فِي مَا رَزَقْتَهُمْ، وَاعْفِرْ لَهُمْ وَارْحَمَهُمْ»^(٢).

(١) - " الوُطْبَةُ: الحَيْسُ، يُجْمَعُ بَيْنَ التَّمْرِ وَالْأَقِطِ وَالسَّمْنِ". النهاية في غريب الحديث والأثر لمجد الدين أبو السعادات المبارك المشهور بابن الأثير (ت: ٦٠٦هـ)، تح/ طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي (٢٠٣/٥)، ط، المكتبة العلمية، بيروت (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).

(٢) - صحيح مسلم، كتاب الأشربة، اب استحباب وضع النوى خارج التمر، واستحباب دعاء الضيف لأهل الطعام، وطلب الدعاء من الضيف الصالح وإجابته لذلك (٣/١٦١٥) رقم (٢٠٤٢).

دل البيان النبوي الشريف على الضيافة، واستحباب دعاء الضيف لصاحب الطعام، وطلب الدعاء من الضيف الصالح، فالرسول - صلى الله عليه وسلم - حين نزل على أحد الصحابة - رضي الله عنهم - ضيفاً، قدم صاحب البيت طعاماً وشراباً فأكل وشرب - صلى الله عليه وسلم - ثم طلب صاحب الطعام من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الدعاء؛ لينال من بركته - صلى الله عليه وسلم - فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لصاحب الطعام بالتوسعة في الرزق والمغفرة والرحمة.

وعند التأمل في البيان النبوي الشريف، نرى أن الضيافة مشروعة بقبول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الطعام والشراب من أحد الصحابة، بل إن صاحب الطعام فرح وسر بقدوم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأكله من الطعام وتناوله التمر، فالصحابي أخذ يصف المشهد في تناول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - التمر ووضع النوى بين إصبعه - صلى الله عليه وسلم - أدباً وتواضعاً، فلم يضع الرسول - صلى الله عليه وسلم - النوى في الطبق؛ لأنه " قد يخالطه الريق ورطوبة الفم فإذا خالطه ما في الطبق عافته النفس "^(١)، رغم أن ريقه - صلى الله عليه وسلم - شفاء وبركة، لكنه - صلى الله عليه وسلم - أثر وضع النوى بين إصبعيه، مراعاة للنفس الإنسانية.

فالبيان النبوي الشريف يدل على الآداب التي يستحب للضيف والمضيف أن يتحلى بها كل منهما، فيستحب للضيف أن يحافظ على نظافة المكان، وعدم رمي بقايا الطعام في المنزل أو الطبق، ويستحب للمضيف أن يطلب الدعاء من الضيف، كما طلب الصحابي من الرسول صلى الله عليه وسلم.

(١) - مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لأبي الحسن المباركفوري (ت: ١٤١٤هـ)، (١٧٩/٨)، ط ٣، إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء، الجامعة السلفية، بنارس الهند (١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م).

وعند التأمل في دلالات التراكيب، نلمح أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد دعا لصاحب الطعام بما فيه من خيرات الدنيا والآخرة فقلوه - صلى الله عليه وسلم - (اللَّهُمَّ، بَارِكْ لَهُمْ فِي مَا رَزَقْتَهُمْ، وَاعْفِرْ لَهُمْ وَارْحَمَهُمْ) شمل التوسعة في الرزق والبركة، والمغفرة والرحمة، وهذا من جوامع كلمه - صلى الله عليه وسلم - حيث جمع لصاحب الطعام ما يسعد به قلبه وتطيب له نفسه من الخير في الدنيا والآخرة، ولا يخفى عليك حذف المسند إليه من الأفعال الثلاثة (بارك، اغفر، ارحم)؛ لأن المسند إليه معلوم ومعروف، وهو الخالق سبحانه جل وعز.

ويستفاد من البيان النبوي الشريف أمور من أهمها:

- يجب على صاحب الطعام أن يحتفي بالضيف، ويظهر الفرح والسرور بقدمه، وأن يجالسه في تناول الطعام.
- عدم عبث الضيف ببيت صاحب الطعام، بل يجب عليه أن يحافظ على نظافة المكان ويجعله كبيته أو أكثر.
- تقديم الضيف النصح والإرشاد بالأسلوب الحسن لأهل البيت إن كان هناك ما يجب التنبيه عليه من الأمور التي تتعلق بالعقيدة، والحلال والحرام بأسلوب يسوده الحب والتلطف.
- طلب الدعاء من الضيف - إذا كان من الصالحين - تبركاً وتفاؤلاً في جو يملؤه الحب والسرور.

المبحث السادس

الضيافة في مقام إكرام الضيف وفضل إيثاره

كشف البيان النبوي الشريف - من خلال أسلوب الاستفهام وما تلاحم معه من معان بلاغية - التنبيه على إكرام الضيف وفضل إيثاره، وما كان عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - وأهل بيته من الزهد في الدنيا، والصبر على الجوع، وكيف كانت مواساة الرسول - صلى الله عليه وسلم - للضيف بما تيسر له - صلى الله عليه وسلم - وكيف تعاون الصحابة - رضي الله عنهم - مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - في إكرام الضيف وإيثاره حال الشدة... إلخ، وقد جاء هذا المعنى فيما أخرجه الإمام مسلم بإسناده : "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنِّي مَجْهُودٌ، فَأَرْسَلْ إِلَيَّ بَعْضَ نِسَائِهِ، فَقَالَتْ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، ثُمَّ أَرْسَلْ إِلَيَّ أُخْرَى، فَقَالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى قُلْنَ كُلُّهُنَّ مِثْلَ ذَلِكَ: لَا، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، فَقَالَ: «مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ؟»، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: أَنَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَاَنْطَلَقَ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: هَلْ عِنْدِكَ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: لَا إِلَّا قُوتٌ صَبِيَانِي، قَالَ: فَعَلَّيْهِمْ بِشَيْءٍ، فَإِذَا نَحَلَّ ضَيْفُنَا فَأَطْفِئِ السَّرَاجَ، وَأَرِيهِ أَنَا نَأْكُلُ، فَإِذَا أَهْوَى لِيَأْكُلَ، فَقُومِي إِلَى السَّرَاجِ حَتَّى تُطْفِئِيهِ، قَالَ: فَفَعَدُوا وَأَكَلَ الضَّيْفُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ عَدَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «قَدْ عَجِبَ اللَّهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ»^(١).

(١) - صحيح مسلم، كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره (٣/١٦٢٤) رقم (٢٠٥٤).

دل البيان النبوي الشريف على الضيافة، وإكرام الضيف وفضيلة الإيثار والحث عليه، وكيف تعامل الأنصاري هو وامرأته مع الضيف، فأثرا على أنفسهما برضاهما مع حاجتهما وخصاصتهما، فمدحهما الله تعالى^(١).

وقد جاءت الضيافة في قوله - صلى الله عليه وسلم - (مَنْ يُضِيفُ هَذَا النَّبِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ؟)؛ إشارة إلى إكرام الضيف، وتقديم الطعام والشراب له، وإيثاره على النفس مع ضيق حال المعيشة، على وجه يحفظ كرامته.

وعند التأمل في بلاغة الرسول - صلى الله عليه وسلم - في إكرام الضيف، نرى أنه - صلى الله عليه وسلم - أرسل إلى أزواجه - رضي الله عنهن - واحدة واحدة، فلم يكتف - صلى الله عليه وسلم - بالإرسال إلى واحدة فقط، بل أرسل إليهن جميعاً، وهذا يدل على حرصه - صلى الله عليه وسلم - في إكرام الضيف، وتقديم الطعام والشراب له بصورة تحفظ حيائه وكرامته، وهنا إشارة عملية أشار بها رسول - صلى الله عليه وسلم - إلى السامع؛ حيث نبهه - صلى الله عليه وسلم - إلى الاجتهاد في إكرام الضيف، وتفقد البيوت جميعاً، وعدم الاكتفاء ببيت واحد أو زوجة واحدة، بل على الرجل أن يتحرى جميع بيوته غاية في كرم الضيف وتقديم الإيواء له إن احتاج ذلك، فإن لم يجد في بيته ما يستطيع به أن يكرم الضيف، استعان ببعض أصدقائه وأقاربه ممن لهم مروءة وأصل في كرم الضيف.

وانظر إلى هذه الطريقة النبوية من الحرص على إكرام الضيف؛ حيث بعث - صلى الله عليه وسلم - إلى نسائه في تفقد الطعام فلما لم يجد - صلى الله عليه وسلم - ما يتوجب للضيف من طعام يسد رمقه وجوعه، عرض - صلى الله عليه وسلم - الضيف على أصحابه مروءة وأصالة منه - صلى الله عليه وسلم - فلم يستسلم - صلى الله

(١)- ينظر: المنهاج شرح صحيح مسلم (١٢/١٤).

عليه وسلم - لضيق معيشة أزواجه، وأنهن ليس عندهن من الطعام ما يقدم للضيف سوى الماء، بل طلب من أحد الصحابة - رضي الله عنه - أن يطعم الضيف ويقدم له ما يشبعه من الطعام والشراب والإيواء إن استدعى الأمر لذلك، وهذه دعوة عملية يستفيد منها السامع إلى يوم القيامة في إكرام الضيف وتقديم واجب الضيافة له، فإن لم يجد استعان بأصحاب المروعة والشهامة من أصحابه أو أقاربه.

وعند النظر في التراكيب البيانية في قوله - صلى الله عليه وسلم - (مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ؟)، وفي رواية: " أَلَا رَجُلٌ يُضِيفُهُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، يَرْحَمُهُ اللَّهُ؟" (١)، ف (من) في رواية الإمام مسلم يحتمل أن تكون موصولة مبتدأ، خبرها جملة (رحمه الله)، ويحتمل أن تكون استفهامية مبتدأ خبرها جملة (يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ)، أي: أي شخص يقوم بضيافته؟، وعليه فقوله: (رحمه الله) جملة خبرية حال من الفاعل، ويحتمل أن تكون جملة دعائية، فتكون مستأنفةً، وعلى الأول فهي خبرية، ولفظ (يضيف) من الضيافة أي: من يقوم بضيافة الرجل، والتعبير باسم الإشارة (هذا) دل على الرجل المجهود الذي طلب الضيافة.

وتظهر بلاغة هذه الرواية في التنبيه وسرعة ضيافة هذا الرجل المجهود، فالرسول - صلى الله عليه وسلم - قد راعى مصلحة الرجل المجهود في كونه متعب يحتاج إلى طعام ينصب به جسده لما ظهر عليه من الشقة وشدة الجوع، فكان التعبير بأداة الاستفهام (من) أداة قوية في جذب المخاطب وتحريك مشاعره نحو هذا الضيف وملازمته في تقديم الطعام ولزوم الضيافة على وجه السرعة.

(١) - صحيح البخاري، باب تفسير القرآن، كتاب قوله تعالى: (ويؤثرون على أنفسهم)، سورة الحشر، من الآية (٩)، (١٤٨/٦)، رقم (٤٨٨٩).

ورواية الإمام البخاري: (أَلَا رَجُلٌ يُضَيِّفُهُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، يَرْحَمُهُ اللَّهُ؟)، جاء التعبير فيها بأسلوب العرض والتحضيض (ألا رجل يضيفه هذه الليلة... إلخ)، وعند بيان الفرق بين رواية الإمام مسلم، ورواية الإمام البخاري، نلمح أن التعبير في رواية الإمام البخاري فيه نوع من الشدة والقوة على إكرام الضيف والعمل على حفاوته وإكرامه؛ لأن أسلوب التحضيض يفيد معنى الحث والدفع لفعل أمر معين، والحض: هو الحث على الأشياء، من خير وشر، تقول: حضضت فلاناً على فعل المعروف^(١)، فرواية الإمام البخاري فيها معنى الحث والشدة في طلب الإكرام أكثر من رواية الإمام مسلم، وكل رواية بليغة في مقامها وموطنها.

وعند التأمل في السياق نلاحظ مدى الاستجابة للضيف وإكرامه؛ وذلك بقيام أحد الصحابة - رضي الله عنه - باستضافة الرجل واصطحابه إلى بيته وكرمه على النحو المشهود له بالمروءة والأصالة، مما نال إعجاب الله تعالى ورسوله - صلى الله عليه وسلم - كما هو مذكور في نص الحديث الشريف: (قَدْ عَجَبَ اللَّهُ مِنْ صَنِيعِكُمْ بِضَيْفِكُمْ اللَّيْلَةَ)، والعجب هنا كناية عن الرضا والمجازاة على الكرم والجود؛ لأنه سبحانه (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)^(٢)، كما وصف نفسه سبحانه.

وما فعله الصحابي - رضي الله عنه - من إكرام الضيف - رغم ضيق المعيشة - دعوة صريحة إلى السامع نحو إكرام الضيف وإيوائه، فالبيان النبوي الشريف، أظهر لنا كيف عالج الصحابي ضيق المعيشة، وقلة الطعام بالاحتتيال في إكرام الضيف كقوله:

(١) - ينظر: معرفة الفرق بين الضاد والطاء لأبي بكر محمد بن أحمد الصدفي الصابوني الشاعر (ت: ٦٣٤هـ)، تح/ الدكتور حاتم صالح الضامن (ص: ٢١)، ط١، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، (٢٦/١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م).

(٢) - سورة الشورى، من الآية (١١).

(أظفني السراج وأريه فإنه لو رأى قلة الطعام وأنهما لا يأكلان لامتنع من الأكل ...)، وهذا الاحتيال مع الأولاد والأهل قمة في الأصالة والمروءة .

كما أظهر البيان النبوي الشريف فوائد كثيرة منها: أنه ينبغي على كبير القوم أن يبدأ في مواساة الضيف ومن يطرقهم بنفسه، فيواسيه من ماله أولاً بما يتيسر إن أمكنه، ثم يطلب له على سبيل التعاون على البر والتقوى من أصحابه، ومنها المواساة في حال الشدائد، ومنها فضيلة إكرام الضيف وإيثاره، ومنها منقبة لهذا الأنصاري وامرأته رضي الله عنهما ^(١).

وعلى وجه الجملة دل هذا الحديث الشريف على أن إكرام الضيف والعمل على راحتته، وتقديم واجب الضيافة له مما يرضي الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم .

(١)- ينظر: المرجع السابق (٢٦٢/٢١).

الخاتمة

الحمد لله الذي تتم به الصالحات الطيبات، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

فبعد أن عشت مع الضيافة في القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، تبين لي نتائج أهمها:

- وردت مادة (ض ي ف) في القرآن الكريم ست مرات؛ حيث وردت كلمة (ضيف) مضافة إلى اسم ظاهر مرتين، ومضافة إلى ضمير ثلاث مرات، وفعلاً مضارعاً مرة واحدة.
- وردت مادة (ض ي ف)، في البيان النبوي الشريف، فيما يزيد على عشرين موضعاً على حسب اختلاف الروايات.
- أن إكرام الضيف قد جاء ظاهراً بأساليب بلاغية توظف السامع وتساعده على ترسيخ مفهوم الضيافة في نفسه وعقله، فخذ مثلاً النداء في قصة لوط - عليه السلام - في قوله: (قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ^(١))، فالنداء يحمل معنى الترقيق لقلوب قومه؛ كي لا يفضحوه أمام أضيافه، رغم أنه - عليه السلام - يعلم قومه وما هم عليه من ضلال وحب للفاحشة، لكنه - عليه السلام - أراد أن يأخذ كل الوسائل؛ حتى يتم إكرام الأضياف بصورة مرضية.
- وكذلك الاستفهام في قوله: (أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ) أفاد معنى الإنكار والتوبيخ لقوم لوط - عليه السلام - لما قدموا عليه من الجراءة على الضيف وعدم احترامه،

(١) - سورة هود، من الآية (٧٨).

فالضيف من شأنه أن يكرم ولا يهان، فمن أهان الضيف لا يتصف بالمرودة، ولا بمكارم الأخلاق.

- وكذلك الجملة الشرطية في قوله - صلى الله عليه وسلم - ”وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ“^(١)، فالجملة الشرطية وما تحمله من ترابط بين الشرط والجواب، أيقظت السامع نحو إكرام الضيف والعمل على راحته والاحتفاء به؛ فإكرام الضيف والعمل على ما يسعده من تمام الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، وهذه غاية كل مسلم.

- كان أثر الأساليب البلاغية عظيمًا في إيقاظ السامع ودعوته إلى إكرام الضيف، والحفاوة به، والعمل على راحته.

- كان أكثر التراكيب التي جاءت في القرآن الكريم، والبيان النبوي الشريف، أسلوب الاستفهام؛ لما له من دور فعال من الإيقاظ والتنبيه والمشاركة والتجاوب بين المتكلم والمخاطب.

- ندر استخدام الصورة البيانية في الموضوع محل الدراسة، ولعل هذا يرجع إلى أن الضيافة تأكيد لما كان قبل الإسلام من سنن المرسلين، ومفاخر العرب وعاداتهم في حفاوة الضيف، فالضيافة لا تحتاج إلى تقريب وتمثيل بالصورة البيانية، بل هي تحتاج إلى تذكير وأمر... إلخ؛ حتى تستمر المودة والمرودة بين المسلمين.

- كشف القرآن الكريم، والبيان النبوي الشريف، أن الضيافة من مكارم الأخلاق، وكرامة الأصل.

(١) - صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (١١/٨) رقم (٦٠١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

- أسهم القرآن الكريم في أن الضيافة من سنن الأنبياء والمرسلين، وأن أول من شرعها سيدنا إبراهيم عليه السلام.
- وضع البيان النبوي الشريف - بأسلوب عملي - آداب الضيف والمضيف، كقبول الدعوة، والدعاء لصاحب الطعام، ونظافة المكان، وعرضه - صلى الله عليه وسلم - الضيافة على أصحابه عند قلة الزاد وحاجة الضيف.

ومن أهم التوصيات:

- دعوة الباحثين إلى دراسة الضيافة في أشعار العرب؛ حتى تظهر القيم، وتعم الفائدة، فما أحوجنا إلى مكارم الأخلاق، والمروعة في هذا العصر.
- تتبع منظومة القيم العربية الباقية (الجار، الصديق، اللاجيء، إنصاف المظلوم... إلخ)، من خلال القرآن الكريم، والسنة النبوية، وأشعار العرب، وبيان أثر الأساليب البلاغية في أدائها.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم جل من أنزله.

- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري لأحمد بن عبد الملك القسطلاني، ط ٧، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر (١٣٢٣هـ).
- أسرار البلاغة لأبي بكر عبد القاهر الجرجاني، تح/عبد الحميد هنداوي، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م).
- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق لعائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ، ط، دار المعارف، المكتبة الشاملة موافق للمطبوع.
- إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش، ط ٤، دار الإرشاد للشئون الجامعية، حمص، سورية، (١٤١٥هـ).
- الإيضاح في علوم البلاغة لمحمد بن عبد الرحمن المعروف بخطيب دمشق، ت/محمد عبد المنعم خفاجي، ط ٢، دار الجيل، بيروت.
- بحر العلوم لأبي الليث نصر بن محمد السمرقندي، المكتبة الشاملة، موافق للمطبوع.
- بيان المعاني (مرتب حسب ترتيب النزول) لعبد القادر بن ملا حويش، ط ١، مطبعة الترقى، دمشق (١٣٨٢هـ / ١٩٦٥م).
- البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف لإبراهيم بن محمد الحسيني، تح/سيف الدين الكاتب، ط، دار الكتاب العربي، بيروت.
- التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور التونسي، ط، الدار التونسية للنشر، تونس (١٩٨٤هـ).

- التراكيب الإسنادية الجمل " الظرفية - الوصفية - الشرطية " للأستاذ الدكتور/ علي أبو المكارم، ط١، مؤسسة المختار، القاهرة (١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م).
- تفسير القرآن لأبي المظفر، منصور بن محمد السمعاني، تح/ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس بن غنيم، ط١، الرياض، السعودية (١٤١٨هـ / ١٩٩٧م).
- تفسير مقاتل بن سليمان لأبي الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي، تح/عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث، بيروت (١٤٢٣هـ).
- جامع البيان في القراءات السبع لعثمان بن سعيد بن عمر الداني، ط١، جامعة الشارقة، الإمارات (١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م).
- جامع البيان في تأويل القرآن لمحمد بن جرير الطبري، تح/أحمد محمد شاكر، ط١، مؤسسة الرسالة (١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م).
- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم لزين الدين عبد الرحمن بن رجب الحنبلي، تح/شعيب الأرنؤوط - إبراهيم باجس، ط٧، مؤسسة الرسالة، بيروت (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م).
- دلائل الإعجاز في علم المعاني لأبي بكر عبد القاهر الجرجاني الدار، تح/محمود محمد شاكر أبو فهر، ط٣، مطبعة المدني بالقاهرة (١٤١٣هـ / ١٩٩٢م).
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين محمود الألوسي، تح/علي عبد الباري عطية، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤١٥هـ).
- شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن) لشرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، تح/عبد الحميد هندأوي، ط١، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الرياض، (١٤١٧هـ - ١٩٩٧م).
- شرح صحيح البخاري لأبي الحسن علي بن خلف المشهور بابن بطلال، تح/أبو

- تميم ياسر بن إبراهيم، ط ٢، مكتبة الرشد، السعودية، (١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٣ م).
- شرح مصابيح السنة للإمام البغوي لمحمد بن عزالدين المشهور بابن الملك، تح/ لجنة مختصة بإشراف: نور الدين طالب، ط ١، إدارة الثقافة الإسلامية (١٤٣٣ هـ / ٢٠١٢ م).
 - شعب الإيمان لأحمد بن الحسين البيهقي، تح/ د. عبد العلي عبد الحميد حامد وآخرون، ط ١، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض (١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م).
 - صحيح البخاري لمحمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري، تح/ محمد زهير بن ناصر الناصر، ط ١، دار طوق النجاة (١٤٢٢ هـ).
 - صحيح مسلم لمسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، تح/ محمد فؤاد عبد الباقي، ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
 - الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى بن حمزة العلوي، ط ١، المكتبة العصرية، بيروت (١٤٢٣ هـ).
 - عمدة القاري شرح صحيح البخاري لمحمد محمود العيني، ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
 - فيض القدير شرح الجامع الصغير لزين الدين محمد المناوي، ط ١، المكتبة التجارية الكبرى، مصر (١٣٥٦ هـ).
 - الكامل في القراءات والأربعين الزائدة عليها ليوسف بن علي بن جبارة الهذلي الشكري، تح/ جمال بن السيد بن رفاعي الشايب، ط ١، مؤسسة سما للتوزيع والنشر (١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م).
 - كتاب التعريفات لعلي بن محمد الشريف الجرجاني، تح/ جماعة من العلماء بإشراف الناشر، ط ١، دار الكتب العلمية بيروت، (١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م).

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل لأبي القاسم محمود الزمخشري، ط٣، دار الكتاب العربي، بيروت (١٤٠٧هـ).
- الكشف والبيان عن تفسير القرآن لأحمد بن محمد الثعلبي، تح/ الإمام أبي محمد بن عاشور، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت (١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م).
- الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري لأحمد بن إسماعيل بن عثمان الكوراني، تح/ الشيخ أحمد عزو عناية، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م).
- الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم لمحمد الأمين بن عبد الله الهَرري الشافعي، مراجعة: لجنة من العلماء برئاسة البرفسور/ هاشم محمد علي مهدي، ط١، دار المنهاج، دار طوق النجاة (١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م).
- لطائف الإشارات (تفسير القشيري) لعبد الكريم بن هوازن القشيري، تح/ إبراهيم البسيوني، ط٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.
- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل لفاضل بن صالح السامرائي، ط٢، دار عمار للنشر والتوزيع، الأردن (١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م).
- مختار الصحاح لزين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الرازي، تح/ يوسف الشيخ محمد، ط٥، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، (١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م).
- مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لأبي الحسن المباركفوري، ط٣، إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء، الجامعة السلفية، بنارس الهند (١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م).
- معالم التنزيل في تفسير القرآن لأبي محمد الحسين البغوي، تح/ عبد الرزاق

- المهدي، ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (١٤٢٠هـ).
- المعجم الكبير لسليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير الطبراني، تح/حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط٢، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
 - معرفة الفرق بين الضاد والظاء لأبي بكر محمد بن أحمد الصدفي الصابوني الشاعر، تح/ الدكتور حاتم صالح الضامن، ط١، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م).
 - المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين المعروف بالراغب الأصفهاني، ت/صفوان عدنان الداودي، ط١، دار القلم، الدار الشامية، بيروت (١٤١٢هـ).
 - المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج لأبي زكريا محيي الدين يحيى النووي، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت (١٣٩٢هـ).
 - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لإبراهيم بن عمر البقاعي، ط، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، المكتبة الشاملة، موافق للمطبوع.
 - النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام لأحمد محمد الكرّجي القصاب، تح/شايح بن عبده بن شايح الأسمرى، ط١، دمشق، دار القيم (١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م).
 - النهاية في غريب الحديث والأثر لمجد الدين أبو السعادات المبارك المشهور بابن الأثير، تح/ طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، ط، المكتبة العلمية، بيروت (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).

فهرس الموضوعات

رقم الصفحة	الموضوع.
٤٠٦٧	ملخص البحث.
٤٠٧١	المقدمة.
٤٠٧٤	التمهيد: الضيافة في القرآن الكريم، والسنة النبوية.
٤٠٧٧	الفصل الأول: الضيافة في القرآن الكريم، ويشتمل على ثلاثة مباحث: المبحث الأول: الضيافة في مقام قصة إبراهيم عليه السلام.
٤٠٨٨	المبحث الثاني: الضيافة في مقام قصة لوط عليه السلام.
٤٠٩٩	المبحث الثالث: الضيافة في مقام قصة موسى والخضر عليهما السلام.
٤١٠٥	الفصل الثاني: الضيافة في السنة النبوية، ويشتمل على ثلاثة مباحث: المبحث الأول: الضيافة في مقام الحث على إكرام الضيف.
٤١١٩	المبحث الثاني: الضيافة في مقام أدب الضيف والمضيف.
٤١٢٥	المبحث الثالث: الضيافة في مقام إكرام الضيف وفضل إيثاره.
٤١٣٠	الخاتمة.
٤١٣٣	المصادر والمراجع.
٤١٣٨	فهرس الموضوعات.